

ليوپاردى

شاعر ايطاليا ومفكرها الكبير

أفكار

ترجمة: أمارجى



نبذة عن المؤلف:

ولد جياكومو ليوباردي، شاعر إيطاليا ومفكرها الكبير، في التاسع والعشرين من حزيران/ يونيو سنة ١٧٩٨. درس



اللاتينية واللاهوت والفلسفة، وكتب أول أعماله وهو في الخامسة عشرة من عمره. أصيب مبكراً بمرض خطير ظلَّ يعاني تداعياته طيلة حياته. كان مناهضاً كبيراً للحركة الرومانسية، وكتب ضدها «ما تحدّث به إيطاليّ حول القصيدة الرومانتيكية». عاش حياة هي أقرب إلى العزلة؛ ومن روائحه القصائد الخمس: «الفكر المسيطر»، «حب وموت»، «إلى ذاته»، «كونسالفو» و«أسباسيا»، التي كتبت بين عامي ١٨٣١ و١٨٣٥. آخر مؤلفاته: «غروب القمر ونبته الوزال». توفي في نابولي سنة ١٨٣٧.

أفكار



ليوباردي

شاعر إيطاليا ومفكرها الكبير

أفكار

ترجمة:
أمارجي

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

PQ4708.P6.A7 2009

Leopardi, Giacomo, 1798-1837

أفكار/ تأليف جياكومو ليوباردي؛ ترجمة أمارجي. - ط.1. - أبوظبي: هيئة
أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.

160 ص؛ مص؛ 14 x 21 سم.

ترجمة كتاب: Pensieri

تدمك: 978-9948-01-304-4

1 - المقالات الإيطالية.

2 - Leopardi, Giacomo, 1798 - 1837

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإيطالي:
Pensieri



كلمة
KALIMA

© حقوق الطبع محفوظة

هيئة أبوظبي للثقافة والتراث
(مشروع كلمة للترجمة)



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

الطبعة العربية الأولى 1430 هـ - 2009 م

الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة
عن رأي هيئة أبوظبي للثقافة والتراث - كلمة

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

ص.ب: 2380، هاتف: +971 2 6314468، فاكس: +971 2 6314462

info@kalima.ae
www.kalima.ae

المحتويات

7	إهداء.....
9	عند أفق الزمن المعاصر.....
12	حياته.....
20	قوة السّوداويّة.....
25	توطئة.....
29	أفكار.....
151	فلسفة الألم والغضب.....



الإهداء

إلى ماريِلنا سالفارِتزا

عند أفق الزمن المعاصر

يجب ألا يجعلنا الهدوء المضلل لـ«رِكاناتي»، تلك البلدة الموحشة التي أنجبت ليوباردي إلى هذا العالم، ننسى أنه عندما وُلدَ هذا الشاعر والمفكر، في التاسع والعشرين من حزيران/ يونيو سنة 1798م، كانت أوروبا تعيش ارتدادات الثورة الفرنسية على المستوى السياسي، أما على المستوى الاقتصادي فكانت تجني ثمار التطورات الناجمة عن الثورة الصناعيّة.. أمّا الفترة التي بدأت مع مستهلّ عام 1800م لتصل أوجها حوالي عام 1870م، فقد شهدت تراجع الأرستقراطية بإزاء نشوء البروليتاريا وترسخ الطبقة الوسطى في المجتمع.

وقد كانت حروب نابليون، التي تعد ثمرة هزيمته في واترلو، المسؤولة عن إدخال المفاهيم الأساسية للثورة مثل: الحرية والمساواة والأخوة إلى أوروبا. وفي

مواجهة ذلك، حاولت الهيئة التشريعية في فيينا (1814-1815) إعادة تثبيت النظام القديم، ولكنها لم تستطع سوى فعل القليل؛ حيث كان صراع المفكرين ومثقفي الطبقة الوسطى كبيراً في سبيل التحرر والحصول على تشريعات دستورية، هكذا جُذلت الأفكار الوطنية مع أفكار التحرر في جديلة واحدة، وما كانت في البداية أحلاماً عبّرت عنها أقلياتٌ مسحوقة، استحالت فيما بعد نهراً عظيماً هزّ أركان أوروبا في سنة تاريخية عظيمة، سنة 1848م.

بين المفكرين والفنّانين آنذاك، كثيرٌ هم الذين خاضوا في السياسة ونطقوا بأفكار الثورة، فيما على الجهة الأخرى من ذلك، وتحديدًا في النصف الثاني من القرن، لم يكونوا بقلّة، هم أيضاً، أولئك الذين طوّقوا بالعزلة بما جنوه على أنفسهم جرّاء مناهضة التحرر عبر الشعر والفنّ.

لقد شهد النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، في أوروبا، انتصار الرومانسية، تلك الظاهرة الرّحية والمعقّدة التي مسّت جميع أشكال الفنّ مثلما مسّت الأفكار والسلوك، وقد امتدّت لبضعة عقودٍ من الزمن،

واختلفت طرقها في الإفصاح عن نفسها بين بلدٍ وآخر. لكن، بين تلك النزعات المختلفة، وحتى المتناقضة، للرومانسيين، كانت ثمّة أسسٌ مشتركة: الشّعْر صوت العاطفة، الخيال والوهم أساس الفنّ، الانطلاق نحو حرّية الإبداع، إعلاء شأن الأسطورة والرمز، الكلمة كقيمة تعبيرية. والمرجع الأوحد للجميع في هذا هو تلك الأفكار الموضوعية من قبل جماعة بينا [Gruppo di Jena] التي أسّسها الأخوة شليغل Sclegel، تيك Tieck، نوفاليس Novalis، وشيلينغ Schelling.. وقد أسهمت مدام دي ستيل Mme de Staël إسهاماً خاصاً في انتشار تلك الأفكار، حيث كانت تجمع في القصر المطلّ على بحيرة لمانو رجالات الثقافة الأكثر أهميّة في ذلك الوقت.

أمّا في إيطاليا، فقد برزت خلال الخمس عشرة سنة الأولى من القرن الثامن عشر النزعة التقليدية الحديثة "النيوكلاسيكية"، والتي يمكن ملاحظة آثارها في أعمال مونتي وفوسكولو Monti e Foscolo، وفي أفكار مانتسوني Manzoni وليوباردي Leopardi.. بطبيعة

الحال، يركّز الرومانسيون الإيطاليون على واجبات الكاتب، وهم يعطون اعتباراً كاملاً غير منقوص لعلاقة الأدب بالسياق التاريخي- الاجتماعي، فالأدب بالنسبة لهم يمثل دوراً أساسياً في عملية التوحيد السياسي والبناء الاجتماعي، خصوصاً لمثل هكذا موزايك مبني على الاختلاف الذي هو، أصلاً، السمة المميزة لإيطاليا.

حياته

وُلِدَ جياكومو ليوباردي في التاسع والعشرين من حزيران/ يونيو سنة 1798 من أبويه الكونت موندو وأدلايده أنتيتشي، في بلدة ركاناتي التابعة للمنطقة التي باتت تُعرف اليوم بمقاطعة بونتيفيتشو، ليكون الابن الأوّل (يتبعه كارلو المولود سنة 1799، وباولينا المولودة سنة 1800) لعائلة تنتمي إلى طبقة النبلاء، تلك الطبقة الرّازحة تحت أثقال ضوائقها الماديّة وذهنيّتها الرّجعيّة. كان الأب الذي دائماً ما كانت علاقة جياكومو به في غاية الصّعوبة، كان مناهضاً لنابليون، وكاثوليكياً محافظاً، ولم يكن لمسائل التطوّر الاقتصادي أن تشيّه عن التشبّث بوسائله التقليديّة في هذا المجال. كذلك

كان الأمر مع الأمّ، فعلاقتها بالابن كانت تتسم بالبرود والإقصاء، ما قد يبدو معتاداً بالنسبة إلى هذه الطبقة في ذلك الوقت، إلاّ أنّهُ بطبيعة الحال وحين لا يلبي حاجات فتىً مثل جياكومو، رقيق المشاعر وذو وعيٍ أكثر نضجاً من سنّه. درسَ جياكومو على أساتذةٍ خاصين للغة اللاتينية واللاهوت والفلسفة، ليستعين بذلك على إتمام دراسته الرّسميّة، الأمر الذي سرعان ما تحقّق بفضل رغبته الجّامحة في المعرفة والحرية اللامحدودتين، بالرغم مما كان قد ألمّ به من معوّقاتٍ جسديّة.. في عام 1813، عكف وحده على تعلّم اللغة اليونانية، والعبريّة من بعدها، وقد كتب وهو في الخامسة عشرة من عمره «تاريخ علم الفلك من بداياته إلى عام 1811»⁽¹⁾.

بين عامي 1815 و1816، انصبَّ اهتمامه على الدّراسات الفيلولوجيّة، وقام بترجمة نصوصٍ إغريقيّة، وكتب «العارفُ مترفعاً على الأخطاء الشائعة

(1) La Storia dell'Astronomia dalle sue Origini all'Anno 1811.

للأوليين»⁽¹⁾، لينزل به بعدئذ مرضٌ خطيرٌ، لم يلبث أن ترك له جسداً ضعيفاً ومشوهاً، لكنه لم يمنعه أثناء ذلك من كتابة مغنّاته الشهيرة بعنوان «دنو الموت»⁽²⁾.

قرأ المؤلفين القدماء أمثال دانتي Dante وبتراركا Petrarca، إضافةً إلى بعض معاصريه الأكثر إلهاماً في رأيه مثل ألفييري Alfieri وفوسكولو Foscolo.. وقد نأى جياكومو، في مقتبل العمر، بنفسه عن آراء أبويه ورفض كل صيغ التدين، الأمر الذي سوف يظل مطبوعاً في سجل حياته الثقافية مثل لعنة لا تزول.

في صيف عام 1817، بدأ بكتابة خواتمه الخاصة تحت عنوان «الشذرات»⁽³⁾، ضمّ تأملاته وملاحظاته والأفكار الأولى لقصائده الأوبرالية، واستمر بالعمل عليه حتى عام 1832. وبالتوازي مع كتابته لتلك الإلماعات الفكرية التي طبعت تكوينه الثقافي، كتب جياكومو «يوميات الحب الأول»⁽⁴⁾ الذي عكس،

(1) Il Saggio sopra gli Errori Popolari degli Antichi.

(2) L'Appressamento della Morte.

(3) Lo Zibaldone.

(4) Il Diario del Primo Amore.

بالمقابل ، تكوينه العاطفيّ الذي تشكّل بفعل عشقه المكتوم لابنة عمّه دجرتروّده كاسيّ لاثرزي. في العام ذاته ، بدأت المراسلات بينه وبين الكاتب بيترو دجيورداني Pietro Giordani الذي كان داعماً لفكرة الأدب الملتزم تجاه الشعب ، وما لبثت تلك المراسلات أن أدت إلى صداقة كبيرة.

بعد ذلك ، في عام 1818 ، كتب جياكومو «ما تحدّث به إيطاليّ حول القصيدة الرومانتيكيّة»⁽¹⁾ ، والذي ساند فيه بقوة مناهضة الحركة الرومانسيّة ، الموقف الذي سوف يبقى عليه طيلة حياته. ومع تفاقم لا مبالاته تجاه بلده وعائلته ، وتأجج رغبته بالحرية والاستقلاليّة ، قام في عام 1819 بمحاولة الهرب ، لكن سرعان ما اكتشف والده ذلك واستقبل الأمر بهدوء ولم يعطه أهمية.

في بحرِ العامين 1821 و1822 ، كان لتلك التجربة الحياتيّة البائسة ، والتي أصبحت رؤيا للعالم آنذاك ، أن تُترجمَ إلى نصوصٍ شعريّةٍ فائقةٍ للعادة نذكر منها «الغناء

(1) Il Discorso di un Italiano attorno alla Poesia Romantica.

الأخير لسافو»⁽¹⁾، و«في الربيع، أو حكايا قديمة»⁽²⁾..
في خريف عام 1822 حصل جياكومو على إذن والديه
بالسفر إلى روما ليقوم لدى قريبه كارلو أنتيتشي، في
محيطٍ لطالما حلم بالعيش فيه، لكن لم يلقَ حسن
الضيافة من جهة، ولم يجد عملاً يتناسب مع وضعه
دون المس بكرامته.

في العامين التاليين، وبعد عودته المهزومة إلى
رِكاناتي، غاص ليوباردي في قلب النواة العميقة لتأملاته
الفلسفية، وكتب الجزء الأعظم من عمله «غنائيات
روحية»⁽³⁾.

عرضت عليه دار نشر ستلا، عام 1825، عملاً في
ميلان، لكن، وهو المرتاب من الأجواء الأدبية الرسمية
المحيطة بفينتشتزو مونتشي Vincenzo Monti، فضل
الانتقال إلى مدينة بولونيا حيث عاش فترة من الصفاء
النسبي، رغم عشقه الثاني من طرف واحد للكونتيسة
تريزا كارنيان مالفيزي.

(1) Ultimo Canto di Saffo.

(2) Alla Primavera o delle Favole Antiche.

(3) Operette Morali.

في عام 1827، أصدرت دار ستلا للنشر عمله
«غنائيات روحية»، وانتقل إلى فيرننتسه حيث تعرف على
كتابات Vieusseux، التّجمُّع الذي كان من بين أعضائه
كابُّوني Capponi، توماسيو Tommaseo، وكولتّه
Colletta. في العام اللاحق، أقام ليوباردي في بيزا معلناً
عودته إلى الشُّعر بنصين غنائيين هما «القيامة»⁽¹⁾ و«إلى
سيلفيا»⁽²⁾.

واصل، خلال عام 1829، إنتاجه الشعري بغزارة،
وذلك في بلدته ركاناتي، حيث أنجز غنائياته
«الذكريات»⁽³⁾، «سبت القرية»⁽⁴⁾، «الهدوء بعد
العاصفة»⁽⁵⁾، و«الغناء الليلي لراع متجول من آسيا»⁽⁶⁾؛
ليعود سنة 1830 إلى فيرننتسه بدعمٍ ماليٍّ من أصدقائه
هناك والذين ما كانوا ليوفروا مناسبةً دون إغراق
سوداويته بالنقد، الأمر الذي كان يقوده إلى الانزواء

(1) Il Risorgimento.

(2) A Silvia.

(3) Le Ricordanze.

(4) Il Sabato del Villaggio.

(5) La Quietè dopo la Tempesta.

(6) Il Canto Notturmo di un Pastore Errante dell'Asia.

وعدم المواجهة. ومرةً أخرى، كما لو أنّها سمةٌ حياته التي لا تُمحى، يقعُ ليوباردي من جديد في حبِّ فاني تارجوني توثسِيّ، حبًّا ثالثٍ غير متبادل. هذا الشعور ألهمه القصائد الخمس: «الفكر المسيطر»⁽¹⁾، «حبٌّ وموت»⁽²⁾، «إلى ذاته»⁽³⁾، «كونسالفو» و«أسباسيا»⁽⁴⁾، التي كُتبت بين عامي 1831 و1835.

معذباً مادياً وصحياً، ونائياً بنفسه عن أصدقائه، لم يكن منه سوى أن انتقل في عام 1831 إلى روما ليلحق بـ أنتونيو رانييري Antonio Ranieri المنفي إلى هناك من مدينته نابولي، حيث ربطته به علاقةٌ وطيدة. عاد بعد ذلك، لفترةٍ وجيزةٍ، إلى فيرنسيه، بيد أن المعارضة القويّة لمواقفه من قبل المواقف السائدة آنذاك كانت قد بدأت تتجلى بوضوح، في عام 1832، كتبَ ليوباردي غنائته الروحيّة «حوارِيّة تريستانو وأحد الأصدقاء»⁽⁵⁾.

(1) Il Pensiero Dominante.

(2) Amore e Morte.

(3) A se stesso.

(4) Consalvo e Aspasia.

(5) Dialogo di Tristano e un Amico.

في الفترة الممتدة بين عامي 1833 و1835، استقرَّ في نابولي مع رانيري الذي مثلت علاقته به، عند تلك النقطة، صلته الأكثر أهميةً بالعالم الخارجي؛ وقد كتب في تلك الفترة «تمةً الباتراكوميوماكيا»⁽¹⁾، وهي قصيدة تنتقد نواحٍ عديدة منها ليبراليي فيرنسيه، وكذلك كتب نصاً جديلاً بعنوان «معارضة الماركيز دجينو كابوني»⁽²⁾.

انتقل ليوباردي سنة 1836 إلى منزلٍ بعيدٍ عن المناطق المأهولة، هارباً من الكوليرا، وهناك كتب أغنياته «غروب القمر ونبتة الوزال»⁽³⁾، وهي أشبه ما تكون بالوصية الأخيرة، حيث مات سنة 1837 في نابولي.

(1) Paralipomeni alla Batracomiomachia، والباتراكوميوماكيا هي

عنوان لقصيدة هزلية تنسب لهوميروس.

(2) Palinodia al Machese Gino Capponi، وتعني بالينوديا فنّ

معارضة نصّ شعريّ سابق بنصّ جديد.

(3) Il Tramonto della Luna e la Ginestra.

قوة السّوداوية

كان جياكومو ليوباردي مهمّشاً سواءً على مستوى الحياة الثقافيّة أو تلك الشخصيّة، وذلك نسبةً إلى الأحداث التاريخيّة الكبيرة وكذلك إلى الثقافة المسيطرة في ذلك الوقت والمتجسّدة في "الرُّومانية" التي كان له، منذ عام 1830، جدلٌ فرديٌّ قاسٍ معها، فقد كان في غاية الحذر من طرق وأهداف الجدل السائد في أوروبا عموماً حول تلك المرحلة.

أياً يكن، فحالته تلك لم تكن سوى ثمرة ما اختاره تفكيره من جهة وما طُبعت عليه حياته الشخصية من جهة ثانية، لكن، يمكن القول إنّ تلك العزلة وذاك الاختلاف قد تعاضداً على خلق عظمتة الشعريّة وأصالته الفكرية اللتين لا يمكن فصلهما عن الأخرى.

أمّا النُّقاط الأكثر إلماعاً بين تأملاته فكانت: اعتقاده بأنّ جميع البشر مدفوعون لإرضاء حاجاتهم وتحقيق المتعة حتّى ولو مُنيت محاولاتهم بالإحباط مرّة إثر مرّة، إعطاؤه قيمةً مركزيّةً للجسد والمادّة (الإنسان

مادة ثقيلة) كما يقول، ضدَّ جميع الأفكار الروحية والدينية، وطبعاً رؤياه التشاؤمية للوجود. وحقيقةً أنَّ ضعفه الجسدي، واعتباره الإنسانَ كائناً ناقص التكوين يتَّجه نحو الفناء، وتمزُّقه ما بين حدود الجسد وبين الرغبة بالحرية، علاوةً على عجزه حيال تدهوره الجسmani، قد تآزرت جميعها على إحاطة قدره بالألم.

بعضُ أفكاره كانت حاضرةً، من قبل، في ثقافة القرن الثامن عشر التي مع كونها أكثر إيجابيةً في مسألة الثقة بإمكانيات الإنسان غير أنَّها قدَّمت الومضات الأولى لظاهرة السوداوية. وقد حمل ليوباردي، وإلى أقصى الحدود، التناقض ما بين التَّجديد [Progressismo] الذي يعتقد بالتَّقدُّم المتواصل وغير المحدود في التاريخ الإنساني، وبين السُّوداوية [Pessimismo] التي تعتقد بأنَّ بعض الجوانب في الإنسان لا يمكن تغييرها.

هدَّمت السُّوداوية المتمثلة في فكر ليوباردي النَّسقَ التَّقدُّميَّ للتاريخ على مرحلتين، سمَّيت الأولى، والتي برزت عندما كان في العشرين من عمره، بالسُّوداوية الواقعية؛ اعتبر ليوباردي في أثنائها أنَّ حزنه الفرديَّ

الخاصّ سوِيَّةً مع الحزن المجتمعيّ العامّ هما عاقبة الشَّلل والرُّكود اللذين وصلت إليهما إيطاليا وأوروبا في تلك الحقبة وولّدا أجواءً من العَطَلِ، والضَّجْر، وعقم الفكر والرُّوح، لكن في أعماقه كان مازال ثمة فكرٌ حيٌّ يطمح إلى تحقيق الأنموذج المثاليّ لمجتمعٍ حرٍّ، أو أكثر حرِّيَّةً، حيث يمكن للطَّاقات أن تفصح عن نفسها وللإنسان أن يعيش رؤاه مثلما يراها.

في المرحلة الثَّانية، والتي ستستمر طيلة ما بقي من حياته، يعبر ليوباردي نحو السُّوداوية الكونية، نحو الإيمان بأنَّ حزن الإنسان له أسبابٌ طبيعيَّة وليست اجتماعيَّة كما يُظنُّ، ولذلك فهو حزنٌ جوهريٌّ غير قابلٍ للتحوير. إنَّ الهبات المختلفة للطَّبيعة الأمِّ والعمياء ليست غيرَ الأمراض، والشيوخوخة، والموت، التي تحكم ثلاثتها على الإنسان بالحزن المحقَّق.. الخلوصلُ إلى هذه النتيجة أسهمت فيه، بلا شكٍّ، حالته الجسديَّة، بيد أنَّ الإسهام الأكبر هو لوعيه بحقيقة ذاته، والذي كان سبيلاً إلى معرفة عميقةٍ بأحوال الإنسان.

هذا الوعي بوحدة المصير والألم لم يسقُ المفكرُّ

إلى التَّصَرُّفِ كضحيَّةٍ، وإِنَّمَا على العكس من ذلك،
ساقه الأمر إلى الانشغال بتأسيس أفكاره القائلة بأنَّ
الإنسان يجب ألاَّ يُختزل إلى أوهام، وإنَّ عليه أن يكون
متحملاً للكرب والعزلة، بل إنَّ الوعي بالعزلة والهشاشة
في مواجهة ما يثقل العاتق هو ما يفضي بالإنسان إلى
تكوين أصيلٍ كامل الاتِّحاد.

توخَّى ليوباردي طرح أفكاره عبر تجريب أجناسٍ
مختلفة من الشعر وأجناسٍ مختلفة من النثر، بأسلوبٍ
يُتَّسم، حقاً، بالأصالة والفرادة، وهذا ما بدا واضحاً
حتَّى في ترجمات كتبه. إنَّ تجربته الشعريَّة، في الواقع،
لا يمكن إلحاقها بنزعةٍ محدَّدة؛ فهو يزاوج بعض
مضامين الكلاسيكيَّة، من حيث استخدام إيقاع وشكل
القصيدة الإغريقية واللاتينيَّة، ببعض مضامين الرومانسية
الأوروبيَّة (برغم انتقاداته لها) من حيث: النزوع نحو
المُطلق، فقدان الفرد، البحث عن روحانيَّة فلسفيَّة
وليست نفسيَّة، الألم الكوني.. أمَّا على صعيد الشكل،
فلم تكن لتُعوزهُ الصنعة الأصيلة لخلق مفردةٍ شعريَّةٍ
تكون الحامل لكثيرٍ من المعاني المحتملة، وتعبِّر عن
السُّمة اللامحدَّدة للمشاعر والصور.

بالنسبة إلى ليوباردي، تمثّل القصيدة الغنائيّة
الجنس الشعريّ الأكثر أصالةً، لأنّها الأقرب إلى العاطفة
وإلى الموسيقى؛ هي الأكثر تقادماً والأكثر حداثةً في آن.
هكذا، فمواضيع شعره هي هي مواضيع فكره:
انمحاء الفرد في المكان والزّمان، ضياع أوهام الشباب،
البحث اللامُجدي عن المتعة، الحدس الكونيّ الفائق.
رؤى وأفكار ما زالت، إلى اليوم، تشكّل أعمدة
تساؤلنا الوجوديّة.

توطئة

خلال إقامته في نابولي، شرع ليوباردي بالعمل على إعداد مجموعة من أفكاره الفلسفية للطباعة، وكان قد اقتطف أكثرها من كتابه «الشذرات»؛ وقام قبل بضعة أشهر من وفاته بإرسال رسالة إلى De Sinner يعلن فيها رغبته بنشر مجلدٍ يضمُّ أفكاره في الإنسان وأحواله في المجتمع⁽¹⁾ (*Epistolario, VI*). في السنوات الأخيرة من حياته، والتي تميّزت بإنتاج إبداعيٍّ محمود وبتوقٍ عارمٍ إلى الإيغال في أعماق فكره يشحذه وينقّب فيه، تجلّت بوضوح حاجة الشاعر عندما يكون فيلسوفاً إلى إعادة تنظيم الكثير من الملاحظات التي كان دونّها في الماضي حول سلوك الإنسان، الذي كان له ليوباردي مراقباً ثاقباً

(1) Un volume inédit de Pensées sur les caractères des hommes et sur leur conduite dans la société.

النَّظرة، ومثل سائر المؤلفين الكبار من سابقه،
كباسكال Pascal، مونتائني Montaigne، وروسو
Rousseau، أراد ليوباردي أن يجعل من تجربته الحياتية
أرضية بحثٍ يستطيع من خلالها ملاحظة وجمع السمات
المشتركة في شخصية الإنسان أينما وجدَ من العالم.

الفكرة المبدئية بأن يقتطف من «الشُّدرات»
مجموعةً من أروع اليقينيَّات، تلك المكتوبة بإحساسٍ
رفيعٍ من جهة حرية الفكرة ووحدة النصِّ والمتولدة عن
البرق الخاطف والفوري للعاطفة - أقول، كان لهذه
الفكرة جذور عميقة وقديمة في نفسه، فهي لم تكن
وليدة اللحظة، غير أن ليوباردي مات قبل أن يحقق
رغبته. وراء ذلك، كان أنتونيو رانيري، صديقه المقرب
ورفيق سنواته الأخيرة، هو من حقق تلك الرغبة في سنة
1845، واهباً الحياة لمئةٍ وإحدى عشرة فكرة.

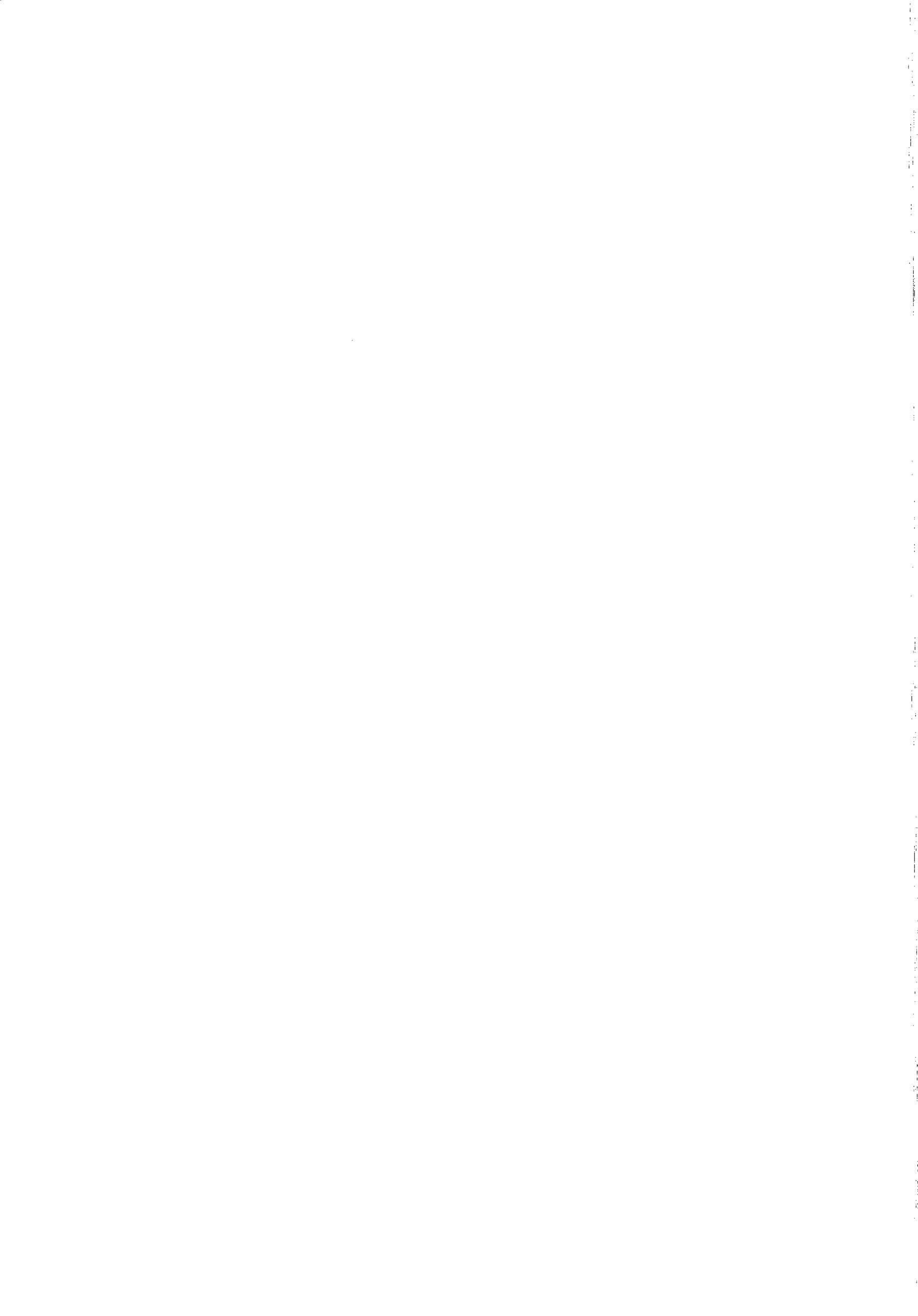
بكل تأكيد، حاول رانيري أن يكون تابعاً
مخلصاً، لكن من المستحيل التعمية على الصعوبة التي
واجهته في محاولته التعويض عن حساسية وحكم مؤلفٍ
مثل ليوباردي معروفٍ بقلقه وشكِّه المستمرين واللذين

كانا يبلغان حدَّ التَّطَرُّفِ في معالجة شكل نصوصه
ومضمونها.

في الوقت نفسه، رأى آخرون أنَّ كتاب «الأفكار»
يقدمُ ينبوعاً فوّاراً من الإلهام نحو المعرفة الحكيمة
بالإنسان، مهما صغرت، وما قد يلوح للبعض على أنَّه
افتقارٌ إلى التَّجانس، لا يمكنه الحؤول دون القبض على
الأثار الرَّائعة لفكر ليوباردي، وما قد يبدو كذلك جفافاً
نغمياً لن يكون مانعاً أمام قدرة نصوصه على توريث
القارئ بالمشاركة الوجدانية.



أفكار



I

لطالما رفضت التصديق بحقيقة الأشياء التي سوف أقولها هنا في الأسفل، ذاك أنه، علاوة على البعد السحيق بينها وبين طبيعتي، وعلى النزوع الدائم لنفسي إلى الحكم على الآخرين حسب نزعاتها الخاصة، لم يكن عندي، مطلقاً، ميل إلى كره الإنسان، وإنما إلى محبته فحسب. في النهاية، كانت التجربة هي ما أثبتت لي ذلك، وعلى نحو قاسٍ؛ وإني لعلّي ثقة بأن هؤلاء القراء الذين حتمت عليهم الحياة أن يجربوا أصنافاً عديدة من البشر سوف يؤكدون على سداد ما أنا في وارد قوله، فيما سوف ينزع الباقون إلى أخذه مأخذ المبالغة، إلى أن تضعه التجربة ذات يوم نصب أعينهم، هذا إذا هم حظوا حقاً بفرصة تتيح لهم معرفة حقيقة بطبيعة المجتمع البشري.

أقول: إن العالم عبارة عن ثلثة من المرئين في مواجهة الإنسان الخير، وعن عصابة من ذوي النفوس

المنحطة مقابل ذوي النفوس السامية. وعندما يجتمع
اثنان من الصنف الأول صدفةً في المكان نفسه ودون
سابق معرفة ببعضهما، يكون ثمة ما يشبه الإشارات التي
تلمع فيما بينهما، سرعان ما يتعارفان على أساسها،
ويتفقان فوراً على حقيقتهما الواحدة المضمرة؛ أما إذا
لم تمل بهما ميولهما هذا الميل، فسوف يحاولان حتماً
حمل واحدتهما الآخر على كشف الحجب عن مواقفه،
وينشأ إثر ذلك احترام متبادل بينهما. قد يحدث جدال
بين أحد المرأتين وبين آخرين من فصيلته نفسها، وغالباً
عندها ما يُحمل كلامه محمل الصدق مع معرفتهم عكس
ذلك، فإذا وجد هذا الشخص ذاته برفقة جماعة من
الشرفاء فمن المستحيل ألا يتصنع الوفاء لهم، ويحيطهم
بأسباب الراحة، دون أن يجرؤ على خذلانهم، لاسيما
إذا كانوا أناساً متنفذين وقادرين على الانتقام، طبعاً لأنه
يأمل، وهذا ما يتحقق له دائماً تقريباً، نيل استحسانهم
بتحايله. عن نفسي كثيراً ما صادفت أناساً يملكهم
الخوف، واقفين بين إنسانٍ مرءٍ هو في الحقيقة أكثر
خوفاً منهم وبين إنسانٍ صادقٍ مليءٍ بالشجاعة، يعمدون
بسبب خوفهم هذا إلى معاضدة الأول. ودائماً ما يحدث

أن يجتمع أشخاصٌ عاديُّون في ظروفٍ مماثلةٍ لهذا
ويسلكون السلوكَ ذاته، هذا لأنَّ طرق الإنسان الصَّادق
والخير هي طرقٌ جليَّة وبسيطة، أمَّا طرق الإنسان
المرائي فخفيَّة ومتنوعة بلا نهاية. الآن، كما يعلم
الجميع، فالأشياء المجهولة تخيف أكثر من الأشياء
المعروفة، وببساطة يعمد المرء إلى أخذ الحذر من انتقام
الصَّادقين، فيما يظنُّ الآخرُ أنَّ الخوف والجبن هما
نفسهما ما ينجيانه من ذلك. بيد أنَّ هذا الخوف وذاك
الجبن لن يكونا، بطبيعة الحال، كافيين للخلاص لا من
التَّعذيب السَّرِّي في باطن النَّفس، ولا من الوعيد
المبطون، ولا حتَّى من الاضطهاد الظَّاهر الذي لن
يتوانى العدوُّ، على رعونته، عن إنزاله به.. عموماً، في
الحياة اليوميَّة، قليلاً ما يُخشى جانبُ الشُّجاع الحقيقيِّ؛
ربَّما لأنَّ جهله بأشكال الكذب يجعله مفتقراً لذلك
التَّكوين الذي يحيلُ الأمور فظيعةً ومرعبةً، والأفطع من
ذلك هو أنَّ هكذا شخص، في الغالب، لا يُصدِّقه
الآخرون، في حين يُهابُ المرائي كما لو كان شجاعاً
حقيقياً، لأنَّ الكذب لطالما موه الشُّجاعة.

قِلَّة هم المراءون الفقراء، لأنَّه، عدا عن كلِّ

شيء، فقرُّ الإنسان الخيِّر لا يقيم في ذاكرة أحد، بل
كثُر من يفرحون لفقره، أمّا إذا حالت أحوال المرّائي إلى
الفقر، فكلُّ المعمورة تهبُّ إلى نجدته. لذلك أن يُعزى
إلى أنّنا، في طبيعة تكويننا، نخافُ على أنفسنا من أن
يمسنا شرٌّ مُصابٍ من هم حولنا أو برفقتنا، فترانا نسرعُ
بكلِّ طواعيةٍ إلى غمرهم بعنايتنا، لا لشيءٍ، ولكن
إدراكاً منّا أن التّخاذلَ عن ذلك سيولّدُ في داخلنا
إحساساً جليّاً بالرُّعب، أنّه في ظروفٍ مماثلة كان يمكن
لذلك أن يحصل لنا. في زمننا، أشرار العالم الفائقون
عدداً وسلطةً، يحيطون أنفسهم بجميع من هم من
زمرتهم، حتّى بأولئك غير الواقعين في مدى أضرارهم،
ويتخذونهم خاصّةً لهم. هكذا، في ساعات الحاجة،
يطمئنون إلى الشُّعور بأنهم مسنودون بتلك الوحدة.
بالنسبة لهؤلاء، هي فضيحةٌ كبرى أن يُرى شخصٌ
معروفٌ بإفكِهِ في حالٍ من البؤس يُرثى لها وهو ما
يحبُّون أن يطلقوا عليه مصطلحَ «المُصاب الإلهي»، لأنَّ
هذا من وجهة نظر العالم، الذي من عادته أن يقدر
الأفّاك، أمرٌ يخدش المعاني الأخلاقية، ما من شأنه أن

يدور بدائرة الخزي على الجميع. لهذا، ودرءاً لهكذا فضيحة، تراهم يتكافلون على نحوٍ مؤثّر، باستثناء طبعاً بعض النّاكثين بالعهد الذين ينقشع الضباب فجأةً عن غاياتهم المستترة، وبالنتيجة فإنّ من النادر أن يقع الشرير في حظٍّ سيئٍ ثمّ لا ينهض منه دون أن يخسر شيئاً.

وعلى عكس ذلك، فالطيّبون والأخيار، باختلافهم عن الشّائع، يبدون كائنات من جنسٍ آخر، فلا يقف الحدُّ فقط عند عيافة رفقتهم، بل يمتدُّ إلى اعتبارهم غير شركاء في الحقوق المجتمعيّة، وكما يرى فهم دائماً مضطهدون، صغراً أو كبراً شأن ذلك الاضطهاد. كلُّ هذا، انحطاط النّفس البشريّة، وشرور الحياة والنّاس الذين يصارعون للعيش بينهم، جليّةً للجميع؛ فكما في جسد الحيوان تنزع الطبيعة إلى حلِّ نفسها من الميول والرغبات التي لا تتلاءم معها من جهة أنّها لا تتلاءم وذاك الجسد، كذلك الأمر في كثيرٍ من المجتمعات الإنسانيّة، حيث تنزع بها نفسُ الطّبيعة، قُبالة المختلّف عن العامّ والخارج عن الاعتياد، وبالأخصّ إذا ما كان هذا الاختلاف محمولاً بالتمرد

على الشائع - أقول تنزع نفس الطبيعة الحيوانية بهذه المجتمعات إلى سحق المختلف أو عزله بكل قوة ممكنة. ومهما يكن، فمن المعتاد أن يكون الطيبون والأخيار مكروهين هكذا، ذاك أنهم صادقون ويسمون الأشياء بمسمياتها. خطيئة غير مغفورة للجنس البشري، هذا الذي لا يستطيع أن يكره أبداً صانعي الشر، ولا حتى الشر نفسه، بقدر ما يستطيع كرهه من يسميه. في أكثر الأحيان، فيما ينشغل صانع الشر بنيل الغنى والشرف والقوة، يُجرُّ مسمو الشر إلى منصة الإعدام، لأن هذا الكبش المنجى جاهز دائماً لمعانة أي شيء قد يأتي من الأرض أو من السماء، لأجل خلاص الآخر غير المستحق.

II

قلب في حياة الرجال اللامعين، فإن أنت نظرت إليها كما هي، أعني إلى أفعالهم وليس إلى كتاباتهم، ثق بأن ما سوف تجده بعد عناء كبير أن الرجال العظماء بحق ما هم، إلا ممن لم يفقدوا الأب في أعمارهم المبكرة. لكن، في الوقت ذاته، يبدو المرء الذي والده

على قيد الحياة، عموماً، رجلاً مُخَلَّعَ اليدين لا حولَ له في مواجهة العالم، بل هو في أكثر الأحيان ما يكون شخصاً مكتفياً بالتَّرقُّبِ والأمل دون إعمال الفكر في سبيل الحصول على ما يطمح إليه بجهدِهِ الذَّاتي. وهذا في حدِّ ذاته قد يصنع بعض اللامعين، إنَّما في ظروفٍ جد استثنائية، لأنَّه في الغالب ما يقيِّضُ لأولئك الذين يأتون بالأفكار العظيمة قدرٌ كبيرٌ، أو أقلُّه كافٍ، من حسن الطَّالع منذ البداية. ولكن، دعنا من كلِّ هذا، إنَّ السُّلطة البطريركيَّة [الأبويَّة] في مختلف البلدان ذات التَّشريعات تجيءُ معها بعبوديَّة الأبناء. ومهما ادَّعتُ التَّأنسن تظلُّ هي الجاثم الأكبر على صدر الفرد، ومهما عدَّلتُ أو لُطِّفتُ أو مُوهَّتُ سواء من قبل التَّشريعات نفسها، أو من قبل الأعراف العامَّة، أو حتَّى من قبل الخصوصيَّة الفكرية للفرد، تبقى هي الشرُّ المطلق الذي لا يني يتناسل في ذاته: في الحقيقة، هذا هو الشُّعور الذي يعتري المرء ما دام أبوه حيًّا، ويحمله معه مُضمراً في أعماق النَّفس، هذا هو على الأقل ما لا يمكنني تجنُّب رؤيته عند الأكثرية، إنَّه الشُّعور بالتَّشيؤ والتَّبعيَّة،

بعدم الامتلاك لحرية الذات، بل أكثر من ذلك، لنقل،
بعدم الامتلاك الكامل للذات؛ هو شعور المرء بأنه جزء
من أو عضو من، لا أكثر ولا أقل، وبعائدية اسمه إلى
ذات غير ذاته. ولعله شبه مستحيل أن شعوراً كهذا،
الذي هو أكثر عمقاً لدى أولئك الواعين بفطرة الأمور
بحكم أن نفوسهم اليقظة تجعلهم أكثر إحساساً وأدق
صوابية في فرز الحقيقة من الزيف، قد يترافق سوية مع،
لن أقول «صنع»، وإنما «تصميم» أي شيء عظيم. ثم،
بعد مضي سنوات الشباب التي قضاهها على ذاك الحال،
يستيقظ المرء الذي هو اليوم في الأربعين أو الخمسين
من عمره، على الشعور، وللمرة الأولى، بقوة الرفض؛
وإذ إنني لا أريد المبالغة بالقول إنه بات من العبث أن
يحاول تلبية تلك الرغبة، فسأقول: ليحاول، ولكن لا
طاقاته ولا الوقت كافيان لإنجاز أشياء عظيمة. هكذا،
أيضاً من هذا المنظور، يُبرهن على أنه لا يمكن للعالم
أن يمتلك الخير ما لم يكن مصحوباً بشراً من نفس قياسه:
فالقائمة التي لا تقدر لأن يحظى المرء في صباحه بحدوة
محبّة يعول عليها في الصعاب، ما لا يمكن أن يكون غير

الأب، بات ينوب منابها نوعاً من الفراغ المخيف، فراغ الشباب وفراغ الحياة.

III

يمكن قياس المعرفة الاقتصادية لهذا القرن بالنظر إلى واقع الطباعة الآخذة بالتقلص والانكماش، ذلك أنه أنى صارت خيارات العين لا تُحصى وقلت مطالعتها للورق. ومع أنه لا أجمل من أن يدخر الورق في الكتب، كحامل للفكر، غير أن هذا لا يعفينا من الاعتراف بأن الدارج في هذا القرن هو أنه بات يُطبع الكثير ولا شيء، في المقابل، يُقرأ. وإلى هذه العادة الدارجة نفسها يمكن أيضاً أن ننسب العدول عن استخدام الأحرف اللاتينية المدوّرة، التي شاع استخدامها في أوروبا منذ قرونٍ خلت، واستبدالها بالأحرف الطولانية الحديثة، زد على ذلك رقّة وشفافية الورق؛ شيء مع أنه جميل للنظر، لكنّه أكثر أذى للعين أثناء القراءة. أو لعلّ مخطئ، وهذا هو المنطقي في زمنٍ باتت فيه الكتب تُطبع لأجل العين التي تنظر لا لأجل العين التي تقرأ.

IV

ما يتبع، ليس فكرة، وإنما حكاية، وأنا أدرجها هنا لتسلية القارئ. كان أحد أصدقائي، أقصد رفيق حياتي، وهو الشاب أنتونيو رانييري يعيش معي في فيرننتسيه سنة 1831. في إحدى العشيّات الصيفيّة، وفيما كان يجتاز أحد الشوارع المظلمة، رأى عند إحدى زوايا ساحة "دومو" وتحت نافذة أرضيّة من العمارة التي هي اليوم لعائلة ريكّاردي، حشداً كبيراً من الناس، وجميعهم كانوا يهمسون وقد تملّكهم الرعب: أوه، الشّبح! نظر صديقي تلقائياً إلى تلك النافذة، حيث لم يكن ثمة من نورٍ في الشّارع غير النور المتساقط داخل تلك الغرفة منبعثاً من إحدى منارات المدينة، ورأى ما يشبه خيال امرأة، كانت تقذف بذراعيها هنا وهناك فيما باقي جسدها جامدٌ لا يتحرّك. ولأنّ رأسه كان مشغولاً بأفكار كثيرة آنذاك، فقد عبرَ بلا اكتراثٍ، حتّى أنّه لم يذكر ذلك المشهد لا في الليلة ذاتها ولا في النهار الذي تلاها. في العشيّة التّالية، وفي السّاعة نفسها، حدث أن مرّ بالمكان نفسه، فرأى جمعاً من النّاس أكبر من ذلك

الذي رآه بالأمس ، وسمعهم يكررون بالرعب ذاته : أوه ،
الشبح ! ولما نظر خلف النافذة ، شاهد الخيال نفسه ،
مرةً أخرى وبلا إبداء أيِّ حركةٍ سوى التلويح العنيف
بالذراعين ، لم تكن النافذة أكثر علوًّا عن الأرض من
قامة رجل ، وكان رجلٌ تبدو عليه هيئة الشرطي يقول :
لو أن أحدكم يرفعني على كتفيه لتسلقتُ ونظرتُ ماذا
يوجد في الدّاخل ، هنا تدخل رانييري مقترحاً : إذا
ساعدتموني ، أتسلقُ أنا وأنظر ، وهكذا ، رُفِعَ صديقي
نحو النافذة متسلقاً الأكتاف الكثيرة بقدميه ، وسرعان ما
صار عند القضبان الحديدية للنافذة ليرى السُّرَّ ؛ كان ثمة
رداءٌ طويلٌ أسود مرخىٌّ على مسند كرسيٍّ ، وكانت
الريِّح تعبث في كُمِّيه صانعةً مشهد الذراعين المتقاذفتين
ذاك ؛ وفوق الكرسيِّ وُضِعَ على المسند نفسه مغزلٌ
صوفٍ ، وهو ما لاح وكأنَّه رأس الخيال ، وما كان من
رانييري إلَّا أن قبض بيده على المغزل ، ولوَّح به للجمع
المحتشد الذي ما لبث أن اختفى على وقع الضحكات
المجلجلة .

لكن ، لم هذه الأقصوصة؟ هي حتماً ، وكما كنت

قد ذكرت، للترويح عن القراء، ولسببٍ آخر في الحقيقة، يتمثل بالشك الذي يتابني، في أنها كما يبدو، لا زالت أمراً مفيداً بالنسبة للنظريات التاريخية ولل فلسفة معرفة أنه في هذا القرن، وتحديدًا في قلب فيرنسيه، المدينة الأكثر تحضرًا في إيطاليا، وحيث الناس خصوصاً هم أكثر وعياً وأكثر تمدناً، ما زال هؤلاء يرون الأشباح ويؤمنون بها على أنها أرواحٌ فيما هي في الواقع مغازل صوفٍ. أعرف، سوف يتسم الغرباء لهذا، كما اعتادوا أن يفعلوا بطيب خاطر، ولكنهم، عند التحقيق، يتسمون من أنفسهم: ذاك أنه بات معروفاً للجميع أن أياً من الدول الثلاث العظمى، كما يطيب للصُّحف أن تسميها، ليست بأقل إيماناً بالأشباح من إيطاليا.

V

في الأشياء الخفية، دائماً ما يرى على نحو أفضل العدد الأصغر، أما في تلك الظاهرة للعين، فيرى العدد الأكبر. لمن السُّخفِ ذاك الإجماع الذي يدعونه بالحدس البشريّ تلقاء الماورائيات؛ هذا الحدس الذي

لا يقيم اعتباراً لأيٍّ من الحقائق الطَّبِيعِيَّةِ، بل ويضعها في الدَّرَكِ الأَسْفَلَ من الإدراك؛ كما على سبيل المثال في مسألة دوران الأرض، وفي ألف مسألةٍ غيرها. وفي المقابل، لكم هو خطرٌ، ومتهورٌ، وأبعد من ذلك، بلا طائل، التَّضادُّ مع رأي العدد الأكبر من النَّاسِ في المسائل المدنيَّةِ.

VI

ليس الموتُ مَسَاءَةً، فهو يحرِّرُ الإنسانَ من جميع السُّوءِ، وسويةً مع الخير، ينزع منه أيضاً الرِّغباتِ.. الشَّيخوخةُ سيئةٌ إلى أقصى الحدود، لأنَّها تسلبُ الإنسانَ كلَّ أشكالِ المتعة، تاركةً له الشَّهوات، ومعها جميع الآلام. رغم ذلك، يخشى النَّاسُ الموتَ، ويفضِّلونَ الشَّيخوخةَ.

VII

لهو، وهذا لَمِنَ غرابةِ القول، استخفافٌ بالموتِ وشجاعةٌ أكثرُ دناءةً وزراريةً من الخوفِ نَفْسِهِ: ما يمكن أن يوصَفَ به أصحابُ الدُّكَّانينَ وجميع أولئك

الملهوفين على صنع المال، ذاك أنهم في أغلب
المرات، ولأجل حفنة حقيمة أو وفرة خسيصة، يرفضون
بعنادٍ أحمق إحاطة مدخراتهم بأسباب العناية والحذر،
معرضين أنفسهم لمخاطر جمّة، حيث ليس نادراً ما
ينتهي الأمر بأصحاب الشجاعة الجبانة هؤلاء إلى ميتةٍ
شنيعة.. عن مثل تبعات هذا الضرب المشين من
الشجاعة، شوهدت أمثلة أخرى ذات مغزى، منها
الدّمار والهلاك الذي حلّ بالأبرياء جرّاء الوباء المسمّى
بكوليرا موربوس، والذي ضرب الجنس البشري في
تلك السّنوات الأخيرة.

VIII

أحد الأوهام الفظيعة التي يقع فيها الإنسان يومياً،
اعتقاده بأن سرّه قد امتلِكَ. ليس فقط السرُّ الذي أودعه
بإرادته صدر أحدهم، ولكن أيضاً السرُّ الذي بغير إرادةٍ
منه، أو برغمه، قد رؤيَ أو عُرِفَ من الآخرين، وعندها
يتملكه الشّعور بأنّه قد عُرِّيَ.. الحق أقولُ لك، أنت
واهمُّ في كلِّ مرّةٍ تظنُّ معها أن إحدى خفاياك التي باتت
مكشوفةً للآخرين انكشافها لك، ولا تحكّمُ بأنّها باتتُ
كذلك دون أن تثبّت من الحقيقة - أقول، أنت واهمُّ إذا

ظننت أن الأمر سيعود عليك بالخزي والأذى. ينزع الإنسان عادةً إلى عدم الكشف عن خفاياه الأكثر حميميَّةً، ولكن بصعوبةٍ بالغةٍ، فبسبب الآخرين لا أحد يبقى صامتاً: وإذا أردتَ التَّحَقُّقُ من هذا، اختبر نفسك، وانظر كم مرَّةً دفعك الأسى أو الأذى أو العار اللاحق بالنَّاس إلى أن تتراجع عن البوح بما تعرفه من أسرارهم، أنت لا تتراجع عن البوح إلا لهذا أو ذاك من الأصدقاء، أو حتَّى لأكثر من صديق، ما يعني الشيء نفسه في النهاية، أن تبوح لواحدٍ أو لمئة، في المجتمع البشريِّ، ما من حاجةٍ أعظم من الحاجة إلى الثرثرة، كوسيلةٍ أساسيةٍ لتمضية الوقت التي هي بدورها واحدةٌ من أولى ضرورات الحياة؛ وما من قضيةٍ للثرثرة أكثر ندرةً من تلك التي توقظ الفضول وتُبعدُ السَّام - ما لا يلبِّيه غيرُ الأمور الخفية والجديدة - في جميع الأحوال، خذها قاعدةً راسخة: إذا أردتَ ألاَّ يعرف الآخرون بالأشياء التي فعلتها، فليس فقط لا تقلها، ولكن لا تفعلها، وتلك التي لا تستطيع أن تفعلها هي غير موجودة، أو أنَّها لم توجد بعد، لذا كن واثقاً أنها سوف تُعرَف، مهما حاولت جهداً ألاَّ تتحقَّقَ مخاوفك.

IX

إذا جاء أحدهم، ضدَّ آراء الآخرين، بنبوءاتٍ عن شيءٍ يصدف وأن يتحقق فيما بعد، من غير المحتمل أن سلّم معارضوه، وقد رأوا البرهان، برجاحة فكره ويعتبرونه الأوفر حكمةً أو الأكثر وعياً بينهم؛ بل هم إمّا سينكرون الحقيقة أو النبوءة، وإمّا سيعزّون الأمر برمته إلى المصادفة، أو إمّا، وبطريقةٍ ما، سوف يتدعون أسباباً ويبدلون قصارى جهودهم لإقناع أنفسهم وحمل الآخرين كذلك على الاقتناع بأن آراءهم هي الصواب، وعكسها هو الباطل.

X

القدرُ الأعظم من الأشخاص الذين نكلّفهم مهمّة تثقيف أولادنا، نعرفُ حقَّ المعرفة أنّهم لم يُثقفوا، ومع هذا لا نشكُّ في أنّهم لن يستطيعوا إعطاء ما لم يُعطوه، وما هو في طبيعة الحال شيءٌ لا يُكتسب.

XI

هناك فتراتٌ في التَّاريخ، لأجل تعمية الحقيقة،
تدَّعي أنَّها من خلال الفنِّ والنَّظريَّات تصنعُ كلَّ شيءٍ،
ذاك أنَّها في الواقع لا تعرفُ صنعَ شيءٍ.

XII

ذاك المرءُ الذي بمعاناةٍ وبألم، أو بعد انتظارٍ
طويلٍ، استطاعَ تحصيلَ مراده، قد يرى الآخرين
يحصِّلون الشيءَ نفسه بسرعةٍ ويُسر، لكنَّ هذا لن يجعله
يخسر في الحقيقة شيئاً ممَّا احتازه، مع أنَّ الأمر يبقى
بطبيعة الحال مقبلاً وغير عادلٍ، فنحنُ في مخيلتنا نرى
أنَّ ما نحققه يغدو بلا أدنى قيمةٍ إذا هو صار مشاعاً
للآخرين دون عناءٍ يُذكر. لهذا السَّبب، نجدُ مؤلِّفَ
الأقاصيص الدِّنيَّة، الذي شدَّ ما يُرهقُ نفسه في هذا
العمل، يتألَّم لمعرفته بأنَّ ثمةَ آخرين يعملون أقلَّ ممَّا
يعمل ثمَّ يكسبون بقدرٍ ما يكسب؛ رهبان بعض
الأخويَّات الدِّنيَّة صار من عاداتهم أن يتعاملوا مع
المبتدئين بمختلف أشكال الاستهتار، خشية أن يبلغ
هؤلاء بسهولة المرتبة التي بلغوها هم بشقِّ الأنفس.

XIII

وَهُمْ عَذِبٌ وَمَحَبَّبٌ، ذَاكَ الَّذِي تَخَادَعْنَا بِهِ
الذكري السنويَّة لحدثٍ ما، والتي للحقِّ لا نفعل فيها
أكثر ممَّا نفعل في أيِّ يومٍ آخر من السنَّة؛ الحدثُ يذهب
ويبقى التاريخ، ولا صلة بينهما سوى ظلال الماضي
التي تنهض وتعودُ في يومٍ معيَّن من كلِّ عام، وها هي
ذي حاضرة بغية تطيب النَّفس من الكرب النَّاجم عن
زوال ما قد كان، ومحو آلام الخسارات الكثيرة، تدَّعي
هذه الدَّورة المختلقة أنَّ ذاك الذي مضى ولن يعود، لم
ينطفئ ولم يتلاش. هكذا، يحدث عندما نمرُّ بإمكانة
شاهدةٍ على أحداثٍ مضت وذات قيمةٍ تذكاريةٍ لنا، أن
نهمسَ لأنفسنا، ها هنا كان ذاك، وها هنا كان ذاك،
مصدقين، لننقل، بيننا وبين أنفسنا، أنَّنا ونحن في هذا
المكان نكون أكثر قرباً إلى تلك الأحداث ممَّا لو كنَّا في
أيِّ مكانٍ آخر؛ مثل هذا، فعندما نقول أنَّه في مثل هذا
اليوم من عامٍ سابقٍ حدثَ كذا أو كذا، فنحنُ بالأحرى
نريد القول بأنَّ ذاك الحدث هو اليوم أقربُ إلى
الحاضر، أو أبعدُ عن الماضي، منه في أيِّ يومٍ آخر. هذا
الوهم متجذِّرٌ في الإنسان، إذ من الصعب أن يُسلمَ بأنَّ

ذكرى الشيء مغايرةٌ لحقيقة الشيء في كلِّ يومٍ كما في كلِّ يومٍ آخر: لهذا، لطالما كان الاحتفاء السنوي بالذاكرة، سواء تلك الدنيَّة أو المدنيَّة، الجمعيَّة أو الفرديَّة، المتَّصلة بولادة مَنْ نحبُّ أو بموته، وكثيرٌ سواها- أمراً شائعاً في جميع الأمم التي تمتلك، أو بالأحرى امتلكت، ذاكرةً وتقويماً. ولقد لاحظتُ، وأنا أفكِّرُ ملياً في هذه المسألة، أنَّ الأشخاص مرهفي الشُّعور، والمعتادين على العزلة، أو على البوح الباطنيِّ، عادةً ما يكونون تواقين للذكريات السنويَّة، ويعيشون، لنقل هكذا، على ذكرى من هذا النوع، غارقين في التخيلات وقائلين لأنفسهم: في يومٍ من السنة مثل هذا اليوم، حدث لي هذا الشيء أو ذلك.

XIV

لن يكون حزناً قليلاً ذلك الذي قد يحلُّ بالمربِّين، وعلى رأسهم الأهل، إذا هم فكَّروا، وهذا في غاية الحقيقة، أنَّ أبناءهم، أيّاً تكن سجاياهم التي اكتسبوها، وأيّاً تكن العناية والكدُّ المبذولان في تربيتهم، ليس من غير الوارد، وطبعاً جرأاً اختبارهم لهذا العالم، ألا

يتحوّلوا أو غاداً، ما لم يقطع الموتُ عليهم ذلك. لعلَّ هذه الإجابة هي أقوى حجّة وأوفر منطقاً من إجابة تاليتة *Talete*، الذي عندما سئل من قبل سولون ⁽¹⁾ *Solone*: لماذا لا تتزوج؟ أجابَ بأنّه قلقُ الآباء ممّا قد يَحِقُّ بالأبناء من المخاطر وسوء الطّالع ما يمنعه من ذلك. أقول- لعلّه أقوى حجّة وأوفر منطقاً العذرَ القائلَ بعدم الرّغبة بزيادة عدد الأوغاد.

XV

كان شيلون *Chilone*، أحدُ حكماء اليونان السبعة، يطلبُ من الرّجلِ قويِّ البنية أن يكون لطيف المعشر، لأنّ هذا في النّهاية، كما يقول، يولّد لدى الآخرين تجاهه شعوراً بالإجلال بدل الخوف. ليس أبداً بأمرٍ مُبالغ فيه التّحلّي بدماثة الخلق، وعذوبة الرّوح، وبشيءٍ من التّواضع لدى أولئك الذين هم، إمّا لجمالهم أو لعبقريتهم أو لأية سمةٍ أخرى هي موضع رغبة البشر، متفوّقون على العامّ: هذا أنّه جدُّ صارم الذنب الذي

(1) مشرّع أثيني مشهور (640-560 قبل الميلاد)، المترجم.

عليهم أن يتوسَّلوا بسببه الغفران إذا هم اقترفوه، ولَهُوَ
جِدُّ مِذْلٍ وَقَاسِ الْعَدُوِّ الَّذِي عَلَيْهِمْ تَسْكِينُ غَضَبِهِ. الْأَوَّلُ
التَّرْفَعُ، الْآخِرُ الْحَسَدُ. مِثْلُ هَذَا، اعْتَقَدَ الْقَدَمَاءُ، عِنْدَمَا
كَانُوا يَنَالُونَ الْعِظْمَةَ أَوْ الرَّخَاءَ، بِأَنَّ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَسْكُنَ
فِي دَاخِلِهِمُ الْآلِهَةَ، هُوَ التَّحَرُّرُ بِالتَّذَلُّلِ وَبِالْأَضَاحِيِّ،
وَبِالْكَفَّارَاتِ الطَّوَعِيَّةِ مِنْ خَطِيئَةِ الْفَرَحِ أَوْ التَّفَوُّقِ الْقَابِلَةِ
لِلْأَمْحَاءِ.

XVI

سواءً على الخاطيءِ أو على البريء، يقول
الإمبراطور أوتو *Ottone* مخاطباً تاسيتوس *Tacito*،
فالنَّهْيَةُ الْمَعْدَّةُ لِهَمَا وَاحِدَةً، ذَاكَ هُوَ عَدْلُ الْمَوْتِ.
ظَنِّي، لَنْ تَخَالَفَنِي الرَّأْيُ تِلْكَ الْأَفْكَارُ الْمَوْجُودَةُ عِنْدَ
بَعْضِ أَوْلَادِكَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ رُوحاً عَظِيمَةً وَمَفْطُورَةً عَلَى
الْخَيْرِ، فِي أَنَّهُمْ مَا أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى الْعَالَمِ، وَيَخْتَبِرُوا
النُّكْرَانَ وَالْجَوْرَ وَالضَّرَاوَةَ الْفِطْرِيَّةَ لِلْإِنْسَانِ حَيَالِ أَخِيهِ
وَبِأَكْثَرِ حَيَالِ الطَّيِّبِينَ، حَتَّى يَعَانِقُونَ الْخُبَاثَةَ؛ لَا
لَا نَحْرَافٍ أَصَابَهُمْ، وَلَا لَأَنَّهَمْ مُسْتَشْنُونَ مِنَ الْقَاعِدَةِ
لِضَعْفِهِمْ، وَلَا أَيْضاً لِرَغْبَةٍ أَوْ طَمَعٍ بِالمُسْتَضْعَفِينَ البِسطَاءِ

من الأخيار، ولا حتى منجاةً لأنفسهم تلقاء الشرِّ العامِّ،
وإنَّما باختيارهم الحرِّ، وللانتقام من الآخرين، آخذين
الآن أدوارهم نفسَها ورافعين السلاح نفسه في وجوههم.
الشرُّ عند هؤلاء الأشخاص أعمق بكثير، لأنَّه مولودٌ من
خبرة الخير وأمتن بكثير لأنَّه متأصلٌ، شيءٌ لم تعده قوَّة
النَّفْس البشرية وعظمتها، قدرٌ من أقدار البطولة.

XVII

كما هي أقبية السُّجون والسُّفن الحربيَّة غاصَّةٌ
بأناسٍ هم، على حدِّ قولهم، بريئين، كذلك هو الحالُ
في المكاتب العامَّة، إذ إنَّ كرامة الصَّنَفين مهدورةٌ من
قبل الجميع، إلاَّ من قبل الأشخاص المضطَّرين أو
المجبرين رغماً عن إرادتهم، من المستحيل، تقريباً،
الالتقاء بشخصٍ يؤكِّدُ بأنَّه حازَ أو استحقَّ الشَّقَاء الذي
يعانيه، أو بأنَّه سعى، أو أقلُّه، رغبَ في المجد الذي
يعيشه: مع أنَّ هذا أقلُّ استحالةً من ذلك.

XVIII

ذات مرّة، رأيت في فيرنيسه رجلاً يجرُّ، على
طريقة حيوانات الجرِّ، كما لو أنّه معتادٌ على ذلك، عربة
مكوّمة بالبضائع، شاقّاً طريقه بغطرسة كبيرة وهو يصيح
في النَّاس ويأمرهم أن يفسحوا الطَّرِيق؛ أتت إلى مخيلتي
صور الكثيرين الذين يمضون في طريقهم وبالكادِ لا
ينفجرون بالتيه والزهو، مسبِّين الإهانة للآخرين لدوافع
ليست مختلفة عن تلك التي خلقت الغطرسة في نفسِ
ذاك، أعني: جرُّ عربة.

XIX

ثمّة في العالم بعض الأشخاص، المعروفين
بفشلهم في كلِّ علاقةٍ يقيمونها مع الآخرين، ليس بسبب
عدم تجربتهم في الحياة المجتمعيّة، ولكن لطبيعةٍ فيهم
لا يمكن تغييرها، تراهم عاجزين عن ترك انطباعٍ
بالبساطة، مفتقرين لتلك السمّات، ولا أدري إن كانت
مزيفةً أو مصطنعة، الموجودة لدى الآخرين حتّى بلا
وعيٍ لذلك وتظهر في سلوك حتّى المغفلين منهم،
بحيث لا يمكن ممايزتها عن السمّات الطبيعيّة فيهم إلّا

بصعوبةٍ بالغة، أولئك كما أقول، كونهم مختلفين
بوضوحٍ عن أقرانهم لاعتبار عجزهم تلقاء الأمور
الحياتية، تراهم يحقرون ويعاملون على نحوٍ سيءٍ حتى
من قبل الأدنى منهم، ولا يُصغي إليهم ولا يُطاع أمرهم
عند أحد، فالجميع يستعلون عليهم ويرمقونهم بفوقية،
وكلُّ من له شأنٌ معهم، يلجأ عمداً إلى إحباطهم
والحاق الأذى بهم في سبيل مصلحته، أكثر مما قد
يفعل مع غيرهم، لاعتقاده أن الأمور معهم أكثر سهولةً
ويمكن أن تُبلغَ بلا عاقبة: فلهذا يُفقدُ أمامهم الصدق،
وتُستعملُ القوة، ويُنقضُ الصوابُ والاستحقاق.. في أيِّ
منافسة هم مغلوبون، حتى من الأقلِّ منهم كفاءةً، ليس
فقط في مسألة الذكاء أو مثلها من الصفات المتأصلة،
ولكن أيضاً في صفاتٍ يثمنها البشر ويعظمونها،
كالجمال والفتوة والقوة والشجاعة وطبعاً الثروة، في
النهاية، مهما يكن شأنهم في المجتمع، لن يكون
بمقدورهم أن يحظوا بتلك الدرجة من الاعتبار التي
يحظى بها العطارون والحمالون، وهذا، بمعنى ما،
منطقيٌّ؛ فهو ليس بعيبٍ أو بنقيصةٍ طبيعيةٍ عابرة العجز

عن نيل ما يستطيع الحمقى نيله بسهولة، هذا الفنُّ الذي هو وحده الكفيل بجعل الكائن الإنساني يبدو إنساناً- أقول، العجزُ مهما كان الجهد، ولأنَّ هؤلاء، وبسبب أنَّ طبيعتهم تنزع إلى الخير، عارفون بالحياة وبالبشر أفضل من كثيرين غيرهم، ولستُ مصدوماً بهذا، فهم كثيراً ما يكونون خيراً من ذلك الذي حُسِبَ مولوداً شرعياً رغم استحقاقه لنقضِ الصِّفة؛ وهم ليسوا جُرِّداً من معرفة الحياة بطيبة خاطرهم أو باختيارهم، لكن لأنَّ كلَّ رغبةٍ أو محاولةٍ لاكتسابها تعود عليهم بلا طائل. هكذا، لا يبقى لديهم خيارٌ آخر سوى تكييف النَّفس مع طبيعتهم، وقبل كلِّ شيء رفضهم محو أو تبطينَ ذلك الوضوح وتلك الطَّبيعة: فما من تصرُّفٍ سوف يبدو أكثر حماقةً وإثارةً للسُّخرية من تقليدهم التصرُّفَ المعتاد للآخرين.

XX

لو أنني وهبت عبقرية سرفانتس، لألَّفتُ كتاباً، مثلما هو خلَّصَ بكتابه إسبانيا من الفرسان الهائمين، أخلَّصُ أنا إيطاليا، بل العالم المتمدن، من نقيصة هي،

مع تقديري لمرونة التقاليد القائمة أو أيًا يكن المعنى،
ليست بأقل قسوة ولا بأقل بربرية من أي أثر باق من
وحشية العصور الوسطى المستحقة لعقاب سرفانتس.
أحدثت عن النقيصة المتمثلة في تلاوة وسرد المؤلفين
لمؤلفاتهم على الآخرين: ظاهرة مغرقة في القدم، غير
أنها في القرون الخالية كانت بؤساً يمكن احتمالها، لأنها
نادرة كانت. لكن اليوم، والجميع يؤلفون، وبات من
الصعوبة بمكان أن تجدَ امرأً ليس بمؤلف، انقلب الأمر
كارثة، وباء اجتماعياً، بلوى جديدة على الحياة
الإنسانية، وليس من قبيل الهزل، بل في غاية الجد
القول إنه بالنسبة لهذا الإنسان صار التعارف مريباً،
والمصادقة خطرة؛ وأنه ما من مكان في هذا الزمن يمكن
لإنسان بريء ألا يخشى فيه من أن يُنقضَّ عليه ويُعذب
بعقوبة التسمع إلى نثر لا آخر له أو شعرٍ بآلاف الأبيات،
وليس بعد اليوم بذريعة الرغبة بسماع رأيه، ذريعة باتت
مُستهلكة وغايتها معروفة: إعادة الإلقاء؛ وبياضح أكثر:
إرضاء غرور المؤلف المُستمع له، طبعاً مع عبارات
الإطراء التي لا بدَّ منها في النهاية. بصدق أقول، وهذا

هو اعتقادي، أنه في أشياء قليلة جداً، تنكشف طفليّةُ
الطبيعة الإنسانية، وإلى أيّ طرفٍ من العماء، بل من
الجهالة، هو الإنسانُ منزوعٌ من الحُبِّ؛ أمّا من الجهة
الأخرى، فالنفسُ قادرةٌ على إيهاامِ نفسها، وذا هو حالُ
من يعرضُ نفسه في حانوتِ الإلقاء الأدبيِّ.. هكذا، ترى
الواحدَ مدركاً لما يولّده في نفسه من غيظٍ لا يوصف
التّسمُّعُ إلى تلاواتِ الآخرين، ورائياً بأَمِّ عينيه الملامح
المتقعة والذاهلة للأشخاص المدعوّين للسمع، كيف
يتذرّعون لهُ بأيّ عذرٍ للرّحيل، أو كيف يهربون منه
ويختبئون عنه ما أمكن، ورغم ذلك، بإرادةٍ من حديد،
وبلجاجةٍ لا مثيل لها، مثل دُبٍّ يتضورُ جوعاً، تراه
يبحث عن فريسته ويلحقُ بها في كلِّ أرجاء المدينة،
وبغتهٍ يبلغُ بلغتهُ حيثما كانت. متمادياً، بعد ذلك،
بالتكرار، ومتنبّهاً، أوّلاً للتثاؤب، ثمّ للتّمطّي، فالتّلوّي
ألماً، ولمئة علامةٍ أخرى من علامات التّوتر القتّال التي
يقاسيها المستمع البائس، لا هو يتوقّف ولا هو يعطيه
فترة استراحة. بل على العكس، دائماً أكثر تزمّناً وعناداً،
يواصلُ خاطباً وصارخاً لساعات، وتقريباً لأيّام وليال،

حَتَّى يَبْحَ صَوْتُهُ، مَا دَامَ هُوَ، وَبَعْدَ وَقْتِ طَوِيلٍ مِنْ إِنْهَاكَ
الْمَتَسَمِّعِ، لَا زَالَ يَشْعُرُ بِأَنَّ قَوَاهُ لَمْ تَنْفَدَ بَعْدَ، بِمَا أَنَّه لَمْ
يَصِلْ حَدَّ التَّشْبُعِ. فِي غَضُونِ تِلْكَ الْمَذْبُحَةِ الَّتِي يَقْتَرِفُهَا
الْإِنْسَانُ بِحَقِّ أَخِيهِ، يَعِيشُ هُوَ مِنْ مَكَانِهِ مَتَعَتَهُ الْفَرْدَوَسِيَّةَ
الْفَائِئِقَةَ: هِيَ مَذْبُحَةٌ، فَلَا نَنْسَى أَنَّ النَّاسَ يَتْرَكُونَ بِسَبَبِ
ذَلِكَ كُلِّ الصُّنُوفِ الْآخَرَى لِلْمَتَعَةِ، يَنْسُونَ النَّوْمَ
وَالطَّعَامَ، وَتَتَلَاشَى مِنْ أَعْيُنِهِمُ الْحَيَاةَ وَالْعَالَمَ. وَهَذِهِ
الْمَتَعَةُ طَبِيعِيَّةٌ فِي الْإِنْسَانِ، وَهِيَ تَكْمُنُ فِي الْإِعْتِقَادِ
الرَّاسِخِ بِأَنَّ لَدَيْهِ مَا يَثِيرُ الْإِعْجَابَ وَمَا يَمْنَحُ الْمَتَعَةَ
لِلْمَسْتَمِعِ: وَإِلَّا فَهُوَ يَسْرُدُ لِلْخَلَاءِ، لَا لِلبَشَرِ. الْآنَ، كَمَا
قُلْتُ، أَيُّ تَكُنُ مَتَعَةُ السَّامِعِ (قَصْدًا أَقُولُ دَائِمًا السَّامِعِ،
لَا الْمَصْنُوعِي)، فَكُلُّ وَاحِدٍ يَعْرِفُ عَنْ خَبْرَةٍ، وَالسَّارِدُ
كَذَلِكَ، وَأَنَا كَذَلِكَ أَعْرِفُهُ، أَنَّ كَثِيرِينَ سَوْفَ يَفْضَلُونَ،
عَلَى مَتَعَةٍ مِنْ جِنْسِ هَذِهِ، أَيَّ عَقُوبَةٍ جَسَدِيَّةٍ قَاسِيَةٍ.
وَحَتَّى الْكُتَابَاتُ الْأَرْوَعُ جَمَالًا وَالْأَرْفَعُ قِيَمَةً، مَا أَنْ تُسْرَدَ
مِنْ قَبْلِ كَاتِبِهَا، حَتَّى تَصِيرَ مِنْ مَسْتَوَى الْكُتَابَاتِ الَّتِي
تَقْتُلُ تَضْجِيرًا. هَذَا مَا كَانَ أَلْمَعَ إِلَيْهِ لَغَوِيٌّ مِنْ أَصْدِقَائِي:
أَنَّه إِذَا كَانَ صَحِيحًا أَنْ أُوَكِّتَافِيَا، لَدَى اسْتِمَاعِهَا لِفِرْجِيلِ

يرتُّلُ الفصل السادس من الإنياده، قد أخذتها الغشية،
فمن المعقول أن هذا ربَّما حصلَ لها، لا لذكرى ولدها
مارتشلُو، كما يقولون، بقدر ما هو لضجر التَّسمُّع.

هكذا هو الإنسان. وهذه النقيصة التي أتحدَّثُ
عنها، أكانت بربريةً أو كانت سخيفةً، تبقى معاكسةً
لمنطق المخلوق العاقل، وهي، بحقٍّ، وبالِ على
الجنس البشريِّ: لأنَّه ما من أمةٍ نبيلةٍ، ما من ظرفٍ
إنسانيٍّ، وما من عصرٍ من العصور، إلاَّ وكان هذا الوباءُ
فاشيًّا.. إيطاليُّون، فرنسيُّون، إنجليز، ألمان، رجالٌ
بيض، فائقو الحكمة في شؤونٍ أخرى، مفعمون عبقريةً
وبطولة، رجالٌ حجَّةٌ في الحياة الاجتماعية، رفيعو
السُّلوك، يعرفون تمييز الحماسة ويهزؤون بها؛ جميعهم
يتحوَّلون أطفالاً متوحِّشِينَ لحظةً سردِ أشياءهم. وكما هو
نقيصةٌ في زمننا، هكذا كان الحال في زمن أرسطو، إذ
لم يكن ليُطاق. وكذلك الأمرُ في زمن الشاعر اللاتيني
مارسال، الذي عندما سئل من أحدهم لماذا لا يتلو عليه
أبياته، أجاب: لكيلا أكره أبياتك. وعلى هذا أيضاً كان
يبدو الأمرُ في أفضلِ فترات اليونان، فعندما، وكما

يُحكى، كان يحضر الفيلسوف السَّاخر ديوجينوس في
صحبة البعض، ويراهم يُحتَضرون سَأماً من تلك
الدُّروس، ناظرين ببؤسٍ إلى الكتاب الذي بين يديه -
كان في النِّهاية، يلوح لهم بالصفحات الفارغة، قائلاً:
تمالكوا أنفسكم أيُّها الأصدقاء، لقد كنتُ أقرأ الأرض.

أمَّا اليوم، فكلُّ هذا الكَمِّ من المستمعين، بمن
فيهم المُكرهون على السَّماع، بالكاد يسدُّ رمقَ
المؤلِّفين. على هذا، فإنَّ بعض معارفي، وهم رجالٌ
بعيدو الرُّؤية، من المسلمِّين بأنَّ سردَ المؤلِّفات لطالما
مثل حاجةً للطَّبيعة الإنسانيَّة، قد بدأوا يفكِّرون من هذا
المنطلق، ولأجل المستقبل، بإدارة مرافق خاصَّة، مثلما
تُدار جميع الحاجات العامَّة. فبتأثير تفاقم هذه الظَّاهرة،
سوف يفتتحون، في وقتٍ قصير، مدرسةً أو معهداً أو
بالأحرى كَلِيَّةً للإصغاء⁽¹⁾. حيثُ، وفي أيِّ ساعةٍ من
النَّهار أو الليل، يمكن لهم أو لأشخاصٍ يوظَّفون
لذلك، أن يصغوا إلى من يرغب بالقراءة لقاءً ثمنٍ معيَّن:

(1) يستخدم ليوباردي هنا فعل الإصغاء بدل الاستماع، لأنَّه يعرض المسألة
من وجهة نظر المخدوعين بالأمر، المترجم.

ما سوف يكون بالنسبة إلى النثر، قطعة فضية⁽¹⁾ عن الساعة الأولى، قطعتين عن الثانية، أربع قطع عن الثالثة، ثمان عن الرابعة، وهكذا دواليك وفق متتالية حسابية. أمّا الشعر فالضعف. وتلقاء كل مقطع مقروء، إذا أحبّ المُلقي إعادة قراءته، كما يحدث دوماً، فيتقاضى ليرة عن كل بيت. وفي حال غطّ المصغي بالنوم، يُعفى القارئ من الدفعة الثالثة للمبلغ المفروض. وفيما لو حصل ووقع أيُّ من حالات التشنج أو البُحّة أو سواها من الحوادث الصّغيرة أو الكبيرة، التي من غير المستبعد أن تقع للطرف الأول أو الثاني خلال الإلقاء، فإنّ المكان سيكون مزوداً بالأدوية والعقاقير التي توزع مجاناً. هكذا، ما أن يُحوّل مادّة للربح شيء ما زال إلى اليوم غير مُستثمر، أعني الأذن، حتّى يُشرع بابٌ جديدٌ على الصّناعة، ليزداد في المحصّلة الثراء العام.

(1) عملة استخدمت في إيطاليا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، كان يُطلق عليها «سكودو» وتعادل خمس ليرات، المترجم.

XXI

الكلام، لا يمنحُ متعةً قويّةً ومديدةً الأثر، ما لم يكن متاحاً لنا التحدّث عن أنفسنا، وعن الأشياء التي تعيننا، أو تتعلّق بنا بحالٍ من الأحوال، أيُّ حديثٍ غير ذلك يصير محضَ مسأمةٍ في لحظاتٍ قليلة؛ وهذا الذي هو ممتعٌ لنا، هو ثقيلٌ حدّاً الهلاك لمن يُصغي، لكن، لا تُشترى محادثةٌ مُحبّبة، بغيرِ ثمنٍ المعاناة: أيُّ أنّه لا يُقالُ عنها مُحبّبةٌ إلاّ عندما تُشبعُ رغبةَ الحديث لدى المتحدّث على حسابِ إسّامِ المتسمّع، فتري هذا يُصغي كثيراً ويصمتُ كثيراً، وهو الأمرُ الأشدُّ سامةً، وقد لا يكون في حيلته غير أن يدعَ للمتحدّثين أن يتحدّثوا عنه وعن خصوصيّاته حين يرغبون، بل وأن يدخلوا أحياناً في محاكماتٍ حول مصائر أشيائه، وقد يشاركُ هو نفسه في الحديث عن ذلك، إلى أن يُزعموا الافتراق، أولئك في بالغ السُّرور منه، وهو في بالغ السّأم منهم، ذاك أنّه، إذا كان الرّفيق الأفضّل هو ذلك الذي يتركنا أكثر رضاً مع ذاتنا، فهذا يعني أن هذا الرّفيق هو أقرب إلى ذاك الذي نتركه نحنُ أكثر سأمًا. الحصيلة هي أنّه في الحديث، وفي أيّ لقاءٍ لا تكون الغاية فيه تبادل الحوار، يكون من

غير الممكن تجنبُ حصول المتعة لدى طرفٍ والسَّام
لدى الطرف الآخر، ولا يمكن حتى الأمل بعكس ذلك.
ولهوَ حظٌّ طيبٌ أن يُتاح للمرء أن يأخذ قليلاً من هذا
وقليلاً من ذاك، بتعادلٍ.

XXII

ليبدو لي في غاية الصُّعوبة أن أقرَّ هل هو أكثر
تضاداً مع القواعد الأولى للعادات تحدثُ المرء عن
نفسه طويلاً وبحكم الاعتياد، أم أنه أكثر ندرةً للإنسان
المُعفى من هذه النقيصة.

XXIII

ذاك الذي يُقالُ بشكلٍ شائعٍ، بأنَّ الحياة محضُ
عرضٍ مشهديٍّ، هو قولٌ صادقٌ، وأصدقُ ما يكون في
هذا: أنَّ العالم يتكلَّمُ بلا انقطاعٍ على نحوٍ، ويفعلُ بلا
انقطاعٍ على نحوٍ آخرٍ، في هذه الملهاة الهزليَّة، الجميع
اليومَ يسردون، الجميعُ يتحدثون، وما من متفرِّجٍ على
الجهة المقابلة، وهذا العبث اللغويُّ للعالم لا يضلُّ لا
الطفلَ ولا الأبله، ذلك أنَّ هذه المشهديَّة باتت شيئاً

عديم القيمة، سأمٌ وعناءٌ لا دافع من ورائه ولا غاية من أمامه، هو، إذن، مستحقٌ للمجازفة، بالنسبة إلى عصرنا، أن نجعل الحياة في النهاية واقعاً حقيقياً وليس مصطنعاً، وأن نقوم، لأول مرة، بمجانسة التّضادّ المشهور للعالم بين الأقوال والأفعال، وإذا سلّمنا، عن خبرةٍ يجب أن تكون الآن كافية، بأنّ الأفعال لا يمكن تحويرها أو تبديلها، لاسيّما وأنا مقتنعٌ بأنّ الإنسان قد توقّف عن مغامرته في البحث عن المستحيل، يبقى أن نتّفق على نقطةٍ وحيدةٍ وفي منتهى البساطة، ونحن حتى اليوم لم نحاول فعلها، ها هي ذي: تبديل الأقوال، ولِمرّةٍ، تسمية الأشياء بمسمياتها.

XXIV

أو أنّني مُضللٌّ، أو أنّه حقّاً نادرٌ في زمننا ذاك الشّخصُ الممدوح من الجميع دون أن تكون تلك المدائح قد خرجت أوّل ما خرجت من فمه هو.. جمٌّ هو حبُّ الذات، وجمّةٌ هي الكراهية والحسد التي يحملها النّاسُ بعضهم لبعض، فلاجل صنع اسم، لا يكفي

الواحدُ بفعل ما يستحقُّ الإطراء، وإنَّما يجب عليه
 إطراؤه، أو إيجادُ وهذا لا يغيِّرُ شيئاً مَنْ يقوم مقامه
 فيعلنُ عن الأمر ويعظِّمه بلا كلل، صادحاً به في آذان
 النَّاسِ، لحملهم، سواءً بإشهادهم الدليل، أو بالإصرار
 والترهيب، على تردادِ جزءٍ من ذلك الإطراء، تلقائياً،
 لا تعتقد بأنهم ينسون بكلمةٍ من قبيل هذا لأجل القيمة
 العظيمة التي تمثِّلها، أو لأجل روعة الأعمال التي
 تصنعها. فلو تُركَ الخيارُ لهم لنظروا وصمتوا، ولو كان
 بمقدورهم، لحجَّبوها عن رؤية الآخرين.. من يريدُ
 الرِّفعة، عليه بالضَّعة. غيرَ أنَّ العالمَ قُبالة الضَّعة هو أشبه
 ما يكون بالمرأة: مع الخجلِ ومع التحفُّظ لا بادرة تأتي
 منه.

XXV

لا أحدٌ منَّا غير مُخدوعٍ كلياً بالعالم، ولا هو في
 الوقت نفسه سابرٌ لأغواره، لا نحملُ عليه كثيراً إذا ما
 فقدَ فطرته الخيرة في جزءٍ منه، ما دمننا نشعرُ أنَّه لا زال،
 في جزءٍ آخر، مُسالماً؛ العالمُ مثل شخصٍ لا نعرفُ بأنَّه
 سييءٌ، ولأنَّه يحيينا في كلِّ مرَّةٍ بدمائة، لا يبدو لنا أقلُّ

أو أكثر سوءاً. هي فقط ملاحظاتٌ لأجل التبصُّر في
ضعف الإنسان، لا لأجل تبرئة الشرِّ ولا العالم.

XXVI

عديمُ الخبرة بالحياة، وكذلك الخبيرُ في غالب
الأحيان، عندَ اللحظات الأولى من تورُّطه في حادثٍ
ما، وخصوصاً حين لا يكون له ذنبٌ في وقوعه، إذا ما
هوَ عنتٌ له صورُ الأهل والأصدقاء، فلا يتوقَّع منهم غيرَ
التَّأسية والشَّفقة، وغيرِ إغراقه، وهذا لأجلِ التَّغميضِ
على المساعدة، بحُبِّ ونظراتٍ أكثر من المعتاد؛ بل من
غير المستبعد عن الوقوع في الذَّهن، وقد وجدَ الشَّقِيُّ
نفسه، بسبب ما حلَّ به، مذلولاً في المُجتمع حائلاً في
عيون العالم أشبه بمقترفٍ لجريمة ومصدرٍ عارٍ
للأصدقاء، أن يرى أصدقاءه ومعارفه يهربون من كلِّ
ناحية، وأبعد من ذلك، محبورين هازئين.. بنحوٍ
مشابهٍ، إذا ما أصابه ازدهارٌ ووفرة، فأولُّ ما يخطر بذهنه
من أفكار، هو أن يتقاسم هذه النُّعمة مع الأصدقاء،
الأمر الذي غالباً ما يعود بحبورٍ كبيرٍ عليهم كما عليه؛ لا
يخطر بباله أنَّه ما أن يعلن عليهم الخبر، حتَّى تتلوَّى

وجوهم وتغيم، ويأخذ بهم الذُّهول كلَّ مأخذ؛ كثيرون
سيجهدون، أصلاً، ألاَّ يصدِّقوا، ثمَّ سيعمدون إلى
التَّقليل في نظره، وفي نظرهم ونظر الآخرين، من شأن
النَّعمة الجديدة. وطبعاً، بسبب هذا تفتت بعضُ
الصَّدَاقَات، وبعضها الآخر ينقلبُ كراهيةً. في النَّهاية لا
يوفرُّ الواحد جهداً أو عملاً لتجريد الآخر من نعمته.
هكذا هي التَّخَيُّلات التي تعرضُ لذهن الإنسان، أمَّا
العقلُ نفسه، فهو طبعاً بعيدٌ ومختلفٌ عن واقع الحياة.

XXVII

ليس ثمة علامةٌ أعظم على كون امرئٍ قليل
الفلسفة والحكمة، من أنَّه يريد للحياة بأسرها أن تكون
مفلسفةً وحكيمةً.

XXVIII

الجنس البشريُّ، ووحده من بين جميع الأجناس،
هو في كلِّ جزءٍ منه مقسومٌ إلى جزأين: الأوَّل يستخدمُ
القوَّة، والآخَرُ يقاسيها، لا شرعةً ولا سلطنةً، لا تقدُّمٌ
فلسفيٌّ ولا تمدُّنٌ يمكن أن يمنعوا أن إنساناً مولوداً أو

على وشك الولادة لن يكون إماً من أولئك وإماً من هؤلاء. يبقى أن من بيده الخيار، يختار، صحيح، ليس ذلك في وسع الجميع، وليس دائماً.

XXIX

ما من حرفة عقيمة مثل حرفة الحرف، غير أنها جدُّ عالية قيمة الزيف في هذا العالم، والتي معها يصيرُ للحرف شأن. الزيف، لنقل، هو روح الحياة المجتمعية، وفنٌّ، من دونه بحق لا فنٌّ ولا إمكانية، هذا أنه، وبالنظر إلى وقعه في نفس الإنسان، كامل، إذا ما أنت بحثت في مسألة الحظ عند شخصين أحدهما ذو شأن حقيقي في كل المجالات، الآخر ذو شأن زائف، فستجد هذا أوفر حظاً من ذلك، بل ستجده في أكثر المرات هو المحظوظ، وذلك المعدم الحظ. الزيف قوي وله وقع حتى في غياب الحقيقة، لكن الحقيقة في غيابه لا حول لها ولا قوة. هذا ليس ناشئاً، كما اعتقد، عن الانحدار السيئ لجنسنا، لكن، بما أن الحقيقة لطالما كانت هي دوماً الضعيفة والناقصة، كان لا مناصاً للإنسان، لكي يهزها أو لكي يجمّلها، من شيء من الإيهام وشيء من التلاعب، ليستنطقها أكثر وأحسن ممّا

تستطيعُ قوله. الطَّبِيعَةُ نَفْسُهَا مُحَضُّ زَيْفٍ فِي عَيْنِ
الْإِنْسَانِ، ذَاكَ أَنَّهَا لَا تَجْعَلُ الْحَيَاةَ جَدِيرَةً بِالْحُبِّ أَوْ
مُحْتَمَلَةً مَا لَمْ تُزَاوَجَ بِالْوَهْمِ وَالْخِيَالَاتِ.

XXX

مثلاً هو دأب الإنسان، يدين دائماً الحاضر،
ويتغنى بالماضي، هكذا هم أكثر المسافرين، خلال
سفرهم يعشقون حياة الوطن، ويفضلونها، مع شيء من
التزمت، ثم ما أن يعودوا إلى موطنهم، تراهم، وبذلك
التزمت نفسه، يضعونه وراء جميع تلك الأمكنة التي
سافروا إليها.

XXXI

في كلِّ بلدٍ، يُشار إلى النَّقَائِصِ وَالسَّيِّئَاتِ الْكُونِيَّةِ
لِلْإِنْسَانِ وَلِلْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى أَنَّهَا خَاصَّةٌ بِهَذَا
الْمَكَانِ، أَنَا لَمْ أَحْضُرْ مَرَّةً فِي جِزءٍ مِنَ الْعَالَمِ دُونَ أَنْ
أَسْمَعَ: هُنَا النِّسَاءُ فَارِغَاتٌ وَمَتَقَلِّبَاتٌ، قَلِيلاً مَا يَقْرَأْنَ،
وغير مثقفات. هُنَا النَّاسُ يُحِبُّونَ التَّطَفُّلَ عَلَى شُؤُونِ

الغير، كثيرو الثرثرة والافتراء على بعضهم. هنا المالُ والدَّعم ويُسِر العيش في متناول الجميع. هنا يسود الحسد والصدّاقةُ قليلةُ الصّدق، وهكذا دواليك. كما لو أنّ الأشياء في مكانٍ آخر تسيرُ على نحوٍ مختلف. الإنسانُ بائسٌ بالضرّورة، وثابت العزم على الاعتقاد بأنّه بائسٌ بالمصادفة.

XXXII

بمجرد تحصيله المعرفة العمليّة للحياة قبل غيره، لا يلبث الرّجلُ أن يفقدَ في كلِّ يومٍ شيئاً من ذلك العزم الذي يتّسم به الشُّبان، عزمٌ يحملهم، وهم يبحثون عن مهنة، ويتنظرون العثور عليها، يقيسون كلَّ الأشياء أمامهم بمقياسِ الفكرة المطبوعة في نفوسهم، على التّزمّت تلقاء الغفران للنّقص، وعلى التّشدّد تلقاء التّنازل لجهة الإقرار بفقدانٍ أو غيابِ الكمال، ولجهة التّوسُّل الذي قليلاً ما يُضطرونّ إليه إذا أصبحوا رجالاً. وبعد، كانَ ورأوا كيفَ أنّ كلَّ شيءٍ ناقصٌ، وسلّموا بأنّ لا شيء في العالم أفضل من ذلك الخير القليل الذي لطالما حقّروه، وكانَ وأدركوا أنّه شبه مفقودٍ ذاك الشيء

أو ذاك المرءُ الجديرين حقاً بالتقدير، شيئاً فشيئاً، يتبدّل القياس، ويتبدّلون هم ليحيلوا كل ما يعرض لهم إلى الحقيقي وليس، بعد الآن، إلى الكامل، فيأخذون على التسامح طواعيةً، وعلى تقدير كلِّ نعمةٍ مهما صغرت، كل ظلِّ نعمة، كل إمكانيةٍ ضئيلةٍ يعثرون عليها. وفي النهاية يبدو لهم جديراً بالإطراء كثيرٌ من الأشياء وكثيرٌ من الأشخاص الذين بدوا، للوهلة الأولى، غير مُحتملين. بيد أن الأمر يذهب أبعد من ذلك، فبعدما كانوا في البدء مجردين من نزعة الشعور بالتقدير، لم يلبثوا وأصبحوا مع مرور الوقت عاجزين عن الازدراء، وهذا يحدثُ بالأخصَّ عندما يكونون وافرِي الذكاء. لأنَّه، في الحقيقة، أن يكون المرءُ أكثر استخفافاً وأكثر تَجَهُماً، فتلك الإشارة الأولى لرحيل الشباب، وهي ليست إشارةً حسنة: وهؤلاء يرتابون، إمَّا لقلَّة فهم، وإمَّا طبعاً لقلَّة تجربة، بأنَّهم لم يمتلكوا معرفة الحياة، أو بالأحرى بأنَّهم من صنف أولئك الحمقى الذين يستخفُّون بالآخرين الذين لديهم تقديرٌ كبيرٌ لأنفسهم: قد يبدو هذا، في النهاية قليل الاحتمال، لكنَّه صحيحٌ.

حقاً، لا يمكن أن يعني شيئاً غير الانحدار السَّحِيق
لأحوال الإنسان. القول: إنَّ الطَّبَعِ السَّائِدَ للعالم ينزع
أكثر نحو التَّعْظِيمِ منه نحو التَّصْغِيرِ.

XXXIII

المُخَادَعُونَ من الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، وعموماً النِّسَاءُ،
يعتقدون دائماً أنَّ أضرارهم قد فعلتُ فعلها، وأنَّ النَّاسَ
قد تُرَكُوا مأخوذِينَ بها، الأكثرُ دهاءً يَشْكُونُ في ذلك،
لأنَّهم يعرفون أفضلَ منهم صعوبةَ الفنِّ من جهة،
وأشكالِ تأثيره من جهةٍ أُخرى، لاسيَّما وأنَّ الشَّيْءَ نفسه
الذي يرغب فيه هؤلاء، ألا وهو الخِداعُ، مرغوبٌ من
الجميع. هذان السَّبَبانِ الأخيرانِ يكشفان كيف أنَّه غالباً
ما يخرجُ المُضِلُّ مُضِلًّا. زد على ذلك أنَّ هؤلاء لا
ينظرون إلى الآخرين على أنَّهم قليلو التَّبَصُّرِ، كما يتخيَّل
عادةً من يتبصَّرُ قليلاً.

XXXIV

كثيراً ما يظنُّ اليافعون أنَّهم يكونون أكثرَ جاذبيَّةً
عندما يظهرون بمظهرِ الكآبة، لهذا ربَّما، عندما لا تكون

الكآبة أكثر من محض مظهرٍ، يمكن لها أن تكون
محبوبةً، لكن لأمد قصيرٍ، وغالباً من النساء، أمّا أن
تكون الكآبة جوهريّةً، فكلُّ الجنس البشريِّ سوف
ينبذها. هكذا، على الأمد الطويل، لا يُحبُّ ولا يجدُّ له
مكاناً في اعتبار الإنسان غيرُ السعادة: ذلك لأنَّ العالمَ،
- وهو معه الحقُّ في هذا- لا يحبُّ أن يبكي، ولكن أن
يضحك.

XXXV

في بعض الأمكنة حيثُ يتشابكُ التمدُّنُ بالبربريةُ،
كما على سبيل المثال، نابولي، تمكن ملاحظة - أكثر
ممّا في أيِّ مكانٍ آخرَ - أمر يمكن بطريقةٍ أو بأخرى
تأكيد حضوره في كلِّ الأمكنة: أنَّ الإنسان بمجرد أن
يُشارَ إليه على أنه بلا ثروة، بطلَ إنساناً في نظر الآخرين.
وبمجرد أن كان ثرياً، فهو في خطرٍ مُحْدِقٍ بحياته. من
هنا، حيثُ ولدت هكذا أمكنة هكذا ضرورة، وكما صار
يُمارَسُ في الواقع - نشأت فكرة تمويه الوضع الماديِّ
للإنسان، وحفِّه بالغموض. وهكذا لا يعرفُ الآخرون
إذا ما كان عليهم ازدراءك أم قتلك. لكنك في النهاية

لست بمختلفٍ عمّا هو عليه الإنسان عادةً، نصفٌ مُعتَبَرٌ
ونصفٌ مُزْدَرَىٌّ، تارةً يجبُ سحقُه وتارةً يُخلى سبيلُه.

XXXVI

كثيرون يتصرفون معك برعونة، تدركُ من ناحية،
وأنت تقاسي آلام كراهيتهم، أنّك لا تضعُ حدًّا
لرعونتهم؛ من النّاحية الأخرى، أنت تجهل في الحقيقة
أنّهم رُعنٌ.

XXXVII

ما من نزعة في الإنسان أكثر تعصُّباً في الحياة
العاديّة، ولا أقلّ تعصُّباً، من التّعصُّبِ نفسه.

XXXVIII

كما هو فنُّ المُسايفة عبثيٌّ عندما يتسايفُ اثنان
يتمتّعان بالقدرِ نفسه من البراعة حيثُ يبدو الأمر في
النّهاية، وهُما لا يفوق واحدُهما الآخر في شيء، كما
لو أنّ كليهما مبتدئان، هكذا يقعُ في الغالب أن يبدو
الإنسانُ زائفاً وسيئاً على نحوٍ مجّانيٍّ، لأنّه حينما يلتقي

الشرُّ مع الادِّعاء بالطَّريقة نفسها، يعودُ الأمرُ بالنتيجة
نفسها التي كان ليعود بها فيما لو كان أحد الطرفين أو
كلاهما طيباً وصادقاً. لا شكَّ، عندما ينتقم الإنسان،
في أن الشرَّ والادِّعاء ليسا بمُجديين ما لم يكونا إمَّا
معضودين بالقوَّة، وإمَّا في مواجهة شرٍّ أو مكرٍ
صُغريين، أو بالأحرى في مواجهة الخير، الاحتمال
الأخير نادر الحدوث، والثاني ليس شائعاً، لأنَّ الجنس
البشريَّ، جُلُّه شريرٌ بقدرٍ واحد، بعضه أكثر من هذا
القدرِ أو أقل، وطبعاً لا يمكن إحصاء كم مرَّة بمقدور
هؤلاء أنفسهم، عبرَ عمل الخير بعضهم لبعض، أن
ينالوا بسهولة ذلك الشيء نفسه الذي ينالونه بصعوبةٍ
جمَّة، أو لا ينالونه، عبرَ عملٍ أو بالأحرى العزم على
عمل الشرِّ.

XXXIX

يفسِّرُ بالداسَّار كاستيليونيه في كتابه «المُستشار»⁽¹⁾،
وبشكلٍ في غاية الإقناع، الدَّافع وراء نزعة الشيوخ إلى

(1) كتب بالداسَّار هذا العمل بإلهامٍ من عمله كمستشار في بلاط الدوقة
إليزابتَّا غونتزاغا ويقع في أربعة أجزاء، المترجم.

مدح الزَّمن الذي كانوا فيه شباباً، وهجاء الحاضر.
يقول: «السَّببُ وراء تلك الأفكار الخاطئة عند الشيوخ،
وهذا بحسب تقديري الخاص، أنَّه والسَّنين تهربُ منَّا
تراها تأخذُ معها الكثير من أسباب الرِّضا، وفوق هذا
فهي تقتلعُ من دمائنا جُلَّ جوهرِ النَّفس، لأنَّ الجسد
يتبدَّل، وتضعفُ الأعضاء التي من أجلها تعملُ قوَّةُ
النَّفس. وهكذا تكون قلوبنا في ذلك الوقت، كما ورق
الشَّجر في الخريف، تغادرها زُهيراتُ الفرح النَّاعمة،
ومكانَ الأفكار الجليَّةِ والصَّافية تدخُلُ سماءُ غائمة
ويسيلُ حزنٌ مصحوبٌ بآلاف المآسي: بنحو لا يكون
معه الجسدُ فقط هو السَّقيم، بل النَّفسُ أيضاً، ذاك أنَّه لا
شيء يبقى من متع الأيَّام الخالية غيرُ ذكرى شديدة
التَّشبُّث وصوره لتلك الأيَّام الغالية للزَّمن الرَّغيد، التي
حين نستعيدها يُخيِّلُ لنا بأنَّ السَّماء والأرض وكلُّ شيءٍ
في احتفالٍ لا ينتهي وتُطبِق تلك الصُّورة على أعيننا أنَّى
نظرنا، وفي رأسنا، كأنما في حديقةٍ مُشتهاةٍ وغامضة،
يُزهر ربيع السَّعادة الرَّائع. لهذا، ربَّما من الأجدى لنا،
عندما تبدأ شمسُ الحياة بالميل جهةَ الموسم البارد، أن

نفارق تلك المتع، وننطلق جهة المغيب، تاركين وراءنا مع هاتيك المتع ذكراها أيضاً، ونبتكر، كما يقول تيمستوكليس⁽¹⁾، الفن الذي يعلمنا النسيان؛ لأن مدارك الجسد مضللة جسداً، وكثيراً حتى ما تخدع حكم العقل. كمثلي هذا، يبدو لي الشيوخ، وحالهم حال أولئك الذين يوشكون على مغادرة الميناء، بأنهم يثبتون عيونهم على اليابسة، ويبدو لهم بأن السفينة راسية والشاطئ يغادر؛ هكذا هي الصورة معكوسة عندهم، أن يبقى الميناء، ومعه في الوقت نفسه الزمن والمتع، مقيماً في مملكتهم، فيما نحن نبتعد في سفينة الفناء، مغادرين واحداً باثر الآخر عبر ذاك البحر الهائج الذي يمتص ويتلع كل شيء. الأرض ليست مجازة لنا بعد الآن، وفوق ذلك، نحن مضروبون بكل ریح معاكسة، وفي النهاية، عند شعبة صخرية ما تتحطم بنا السفينة. لا يمكن للنفس الهرمة الواهنة، وقد أمست شيئاً لا يتناسب مع كثير من أشكال المتعة، أن تحتفظ بالذائقة، وكما أن المصابين بالحمى الذين تفسد حاسة التذوق لديهم جرأاً

(1) أحد قادة أثينا الكبار (524-459 قبل الميلاد)، المترجم.

أنفاسهم الفاسدة، يلوح لهم أن كل صنوف النِّبذ هي شديدة المرارة، مع أنها لذيذة وحلوة، كذلك بالنسبة للشيوخ، فبسبب الوهن، والذي هو في طبيعة الحال لا يجردهم من الرغبة، تبدو المتع عديمة الطعم باردة وشديدة الاختلاف عن تلك التي سبقوا اختبارها كما يتذكرون، مع أنهم في سريرتهم يعرفون أن المتعة هي نفسها. لكن، لشعورهم بالعجز أمام المتعة، يتألمون، ويذمُّون الحاضر، غير مبصرين أن هذا التحوُّل آتٍ منهم وليس من الزمن المتقدم، وبعكس ذلك، ما أن تجيء في الذاكرة ظلال المتع الغابرة، حاملة معها أيضاً ظلال زمنٍ ولى، حتى يغدقوه بالمديح لأن ذكره كما يلوح لهم تحمل معها عطرًا كان يعبق بهم حين كان فيما مضى زمنًا حاضرًا. هذا أن النفس البشرية تكره كل الأشياء التي تأتي مصحوبة بما يحزنها، وتحب كل تلك التي تأتي مصحوبة بما يفرحها».

هكذا إذن، يعرض كاستيليونه، وبكلمات ليس جمالها بأقل من ثرائها، كما هو دأب الثريين الطليان، فكرةً جدُّ صحيحة. أزيدُ تثبيتاً لها فأقول: إنَّ الشيوخ

يرمون بالحاضر وراء الماضي، ليس فقط بالنسبة للأمور التي تخضع للإنسان، بل أيضاً بالنسبة لتلك التي لا إرادة لهم فيها حاملين عليها أنها هي الأخرى سيئة، دون الاعتراف بالحقيقة، أنها قد ساءت في نفوسهم ولجهة نفوسهم، ولم تسؤ في ذاتها. أنا واثق من أن كل واحد يتذكر أنه قد سمع الشيوخ حوله أكثر من مرة، كما أتذكر أنا عمّن حولي، يقولون إن المواسم صارت أبرد من ذي قبل، والشتاء كذلك أطول، وإنه على زمنهم، في أيام الفصح، كانوا معتادين على ترك معاطف الشتاء والخروج بثياب الصيف، أما بسبب هذا التغير الحاصل، ففي رأيهم أنه اليوم، وبالكاد في مايو ومرات في يونيو يمكن التجرؤ على فعل ذلك. ومنذ سنوات ليست ببعيدة بحثت بجدية من قبل بعض الفيزيائيين الأسباب وراء ظاهرة برود الفصول هذه، فعزاها البعض إلى إزالة الأحراج الجبلية، والبعض الآخر لا أدري إلى ماذا، لأجل تفسير شيء لا واقع له: لأن الأمر هو في الحقيقة عكس ذلك، فقد خلص أحدهم في دراسته لمختلف النصوص العائدة إلى

مؤلفين قدماء إلى أن إيطاليا في العصور الرومانية كانت أكثر برودة مما هي اليوم. وهذا معقول جداً، لاسيما وأنه من ناحية أخرى قد ثبت بالدراسة، ولأسبابٍ منطقية، أن امتداد التمدن البشري يجعل المناخ، في تلك البلاد التي استوطنت وعمرت من قبل الإنسان، أكثر اعتدالاً: وهو الواقع الحاصل فعلاً والمبرهن عليه خصوصاً في أمريكا، حيث، كما نعلم، حلت حضارة تامّة، من جهة مكان شعب بدائي، ومن جهة أخرى على أرض معزولة تماماً. بيد أن الشيوخ، إذ يعتبرون البرد في أيامهم هذه أشدّ منه في أيام شبابهم، يعتقدون بأن هذا التغير قد طرأ على الأشياء من حولهم وليس عليهم هم، ويتوهمون بأن الحرارة الآخذة بالنقصان في أجسامهم إنما هي تنقص في الهواء أو في الأرض. هذا الوهم متأصل، فالشيء نفسه الذي يصرُّ عليه الشيوخ في أيامنا، كان يصرُّ عليه الشيوخ قبل قرن ونصف من الزمن، لكيلا أقول أكثر، وتحديدًا أولئك المعاصرون لماغالوتّي⁽¹⁾ الذي كتب فيما كتبه في رسائله المشهورة:

(1) لورنتزو ماغالوتّي (1637-1712م)، أديب شغل منصب أمين سر

«صحيحٌ جداً أن التَّراتب القديم للفصول آخذٌ في التَّبَدُّل. هنا في إيطاليا، ثمَّة لغطٌ وحديثٌ عامٌّ بأنَّ فصول الاعتدال⁽¹⁾ ما عادت موجودة. وبسبب هذا الاختفاء للحدود، فمن الطَّبيعي أن يغزو البردُ الحقول. لقد سمعتُ والدي يقول ذات مرَّة إنَّه في أيَّام شبابه في روما، وفي صباح فصح القيامة، كان الجميعُ يخرجون بثياب الصَّيف. اليوم، ما لم يكن المرء مضطراً للخروج بقميص خفيف، أقول لكم بأنَّه سيحرص على ألاَّ يخفَّف في لباسه ولا أصغر قطعة كان هو يرتديها في عزِّ الشَّتاء».

هذا ما كتبه ماغالوتِّي سنة 1683. إيطاليا، إذاً، كانت لتكون أكثر برودةً من غرينلاند عمَّا هي عليه اليوم، طبعاً هذا لو، منذ تلك السنة إلى هذه، استمرت البرودة بالازدياد وفقاً لتلك النسبة التي حدَّثنا عنها. ولهو من المبالغ فيه القول إنَّ هذه البرودة المستمرة يمكن أن تُعزى إلى أسبابٍ تتعلَّق ببرود الكتلة الأرضية،

"لأكادمية دل تشيمنتو" التي أسسها طلاب غاليليو، المترجم.

(1) يقصد الرِّبيع والخريف، المترجم.

فلا أحد سوف يبدي اهتماماً بفرضية كهذه، لأن الأمر،
لبطئه، لن يكون محسوساً على مدى عشرات القرون،
فكيف على مدى سنوات قليلة.

XL

لشدَّ ما هو مقيتُ الحديثُ عن الذات. غير أنَّ
الشَّبَابَ، لما لهم من طبيعةٍ متَّقدة بالحياة، وروحٍ تربو
على التَّوسُّطِ والاعتدال، قليلاً ما يتنبَّهون إلى هذه
النَّقِيصَة: ويتحدَّثون عمَّا يخصُّهم ببراءةٍ مُفرِّطة، وهم
على ثقةٍ مُطلقة بأنَّ من يسمعهم ليس أقلَّ اكتراناً
بشؤونهم منهم أنفسهم. لذلك يُغفَرُ لهم، لا لعدم
خبرتهم من وقعٍ ساحرٍ في النَّفس، ولكن لانكشاف
حاجتهم إلى المؤازرة، إلى النَّصحِ وإلى مُتَنَفِّسٍ بَوَّحِيٍّ
عن عواطفهم المشبوبة وهم في هذا العمر العاصف. إلى
اليوم، ما زالَ معترفاً به، عموماً، أن يكون ثمة حقٌّ ما
للشَّبَابِ بالرَّغبة في عالمٍ مشغولٍ بأفكارهم.

XLI

في بعض الأحيان، شيءٌ طبيعيٌّ أن يبقى المرءُ
مجروحاً من كلماتٍ قيلت في حقه وهو غائب، أو قيلتُ

بنيّة مبّطنة على ألاّ تبلغَ بشكلٍ أو بآخر مسمّعه: لأنّه إذا ما رغبَ في أن يستحضرَ بذاكرته، ويقلّبَ جيّداً حيثيّات القضية، فلن يبقَ له، لا صديقٌ صدوقٌ، ولا شخصٌ مخلصٌ يعولُّ عليه في ألاّ يلحقَ به هكذا أسىً بالغاً من جرّاءِ التفوّه، بكاملِ فمه وتمامِ نيّته، بكلماتٍ وأقاويلٍ على هذا الصّديق أو الشّخص الغائب. من جهةٍ، يتّضحُ لي كم هي تلك المحبّةُ هكذا هشةٌ ومراوغة، إذ من المستحيل تقريباً أن كلمةً قد تقالُ في حقنا خارج مرمى حضورنا، وتُنقل إلينا كما قيلت، ونشعرُ بأننا لا نستحقُّها أو نستحقُّها قليلاً - من المستحيل، أقول: ألاّ نتأذّى بها. من جهةٍ أخرى، لا يمكنني التعبيرُ كم هو سلوكنا مخالفٌ للقاعدة التي تقولُ بالألّا نفعلُ بالآخرين ما لا نحبُّ أن يفعلوه بنا، وكم من مرّةٍ حُكِمَ على حرّيةِ التقوُّل على الآخرين بالبراءة.

XLII

شعورٌ جديدٌ ذاك الذي يختبره الإنسان في عمرٍ يربو قليلاً على الخامسة والعشرين، عندما، بغتةً، يصيرُ ينظرُ إلى نفسه بأنّه غداً أكثرَ خبرةً من كثيرٍ من أصحابه،

وعلى هذا يشعر، لاسيما وأن ثمة في العالم عدداً هائلاً من اليافعين الذين هم أصغر منه، بأنه يحتلُّ بغير منازع المكانة الأسمى من عمر الشباب، ومهما كان شعوره بأنه لا زال أدنى من الآخرين في كلِّ شيءٍ آخر، غير أن اعتقاده بأنَّ أحداً لم يعلوه على مدرجة الشباب لن يتزحزح، لأنَّ الشبان الذين هم أصغرُ بقليلٍ منه هم ليسوا سوى أكبر بقليلٍ من الأطفال، وأحياناً يبدو الأمر له وكأنَّ أصحابه ليسوا جزءاً من العالم. هكذا إذن، يشعر هذا، وبحسب تقديره الواهم، بأنَّ جوهر الشباب هو طبيعةٌ فيه وأصلٌ، إلى درجةٍ بالكاد يمكن له معها أن يتخيَّل أن أحدهما يمكن فصله عن الآخر، إلى أن، شيئاً فشيئاً، يستيقظ ليدرك أنَّ الشباب ليس هبةً، إلاَّ لأمدٍ قصير؛ وعندها، يتحوَّلُ إلى مذكَّرٍ بهذه الحقيقة الثمينة، سواءً لنفسه، أو للآخرين. بالتأكيد، لا يمكن الإشارة إلى امرئٍ، وقد تجاوزَ سنَّ الخامسة والعشرين وبدأت بذلك تويجاتُ الشباب بالتساقط، بأنه لم يختبر بعضَ محن الحياة، اللهمَّ سوى لو كان هذا المرءُ أحمقاً؛ ذاك أنَّه حتَّى لو بقيت أقدارُ المرءِ مُزهرةً في كلِّ الأمور

الأخرى، فما أن تنقضي هذه الفترة، حتَّى يشعر بوطءِ
محنةٍ في نفسه هي أشدُّ وأمرُّ من سائر المحن، ولعلَّها
أشدُّ وأكثر لدى أولئك الذين قليلاً ما امتحنوا. أقصدُ
انحدارَ أو أفولِ شمسِ الشَّبَابِ.

XLIII

في هذا العالم، النَّاسُ الذين يُشار إليهم بالتُّقى هم
أولئك الذين تستطيعُ دون أن ترجو منهم خيراً، ألاَّ
تخافَ منهم شراً.

XLIV

لو أنَّك أجريت استفتاءً على النَّاسِ الخاضعين
لسلطة القضاء، أو لآية سلطة حكومية أخرى، حول
تقييمهم لهذه السُّلطات ولطريقة أدائها، وتحديدًا في
المكاتب، ثمَّ قمتَ بمطابقة الإجابات بالحقائق، فلسوف
تجد تناقضاً كبيراً في التَّأويل. وإذا ما حصلَ واتَّفقت
التَّأويلات، فإنَّ الأحكام لا بدَّ وأن تتضادَّ، بلا نهايةٍ، مع
بعضها، حيث يذمُّ أولئك تلك الأشياء التي يمتدحها

هؤلاء. سوى اللهم حول كف الأيدي عن المال العام أو لا، لن تجد اثنين يتفقان على حقيقة الأمر إلا ويتفقان سواء في التأويل أو الحكم، لكي وبصوت واحد، يطروا على السلطة لهذا الاستتباب، أو يكيلوا عليها للسبب المعاكس، هكذا بكل بساطة. ويبدو، بطبيعة الحال، أن حسن السلطة أو رداءتها لا تُميّز ولا تُعير بمعيار غير معيار المال. وعلى هذا، فسلطة حسنة تساوي سلطة متمنعة، وسلطة رديئة تساوي سلطة جشعة. وإن الشعب قادر، بحسب نزعاته وأهوائه، على تكييف الحياة، وتكييف الصدق وكل شأن من شؤون المواطنة، وقادر كذلك على إيجاد العذر بل وحتى المديح للسلطة مهما تكن أفعالها، لكن شريطة ألا يُمسّ المال، كأن الناس يتعصبون في اختلافهم في كل الأشياء الأخرى ولا يتسامحون إلا في اتّفاقهم على تقديس العملة، أو كأن المال في جوهره هو الإنسان، ولا غير ذلك هو جوهر الإنسان؛ حقيقة تعادل بحق ألف صيغة صاغها الجنس البشري كمسلمات ثابتة، بالأخص في زمننا. مثل هذا الرأي كان ألمع إليه فيلسوف فرنسي من القرن الماضي، إذ قال: السياسون القدماء كانوا يتحدّثون دائماً عن

الأعراف وسبل الخير، هؤلاء المعاصرون لا يتحدثون سوى عن السوق والعملية. ولمن المعقول جداً أن يضيف واحداً من طلاب الاقتصاد السياسي، أو من المبتدئين في دراسة الفلسفة: ذاك أن الخير والأعراف الجيدة لا يمكنها أن تثبت على قدميها بغير أموال الصناعة؛ هذه التي، بإرضائها للاحتياجات اليومية وجعلها العيش سهلاً وآمناً لجميع الناس، قد جعلت الخير قوياً وراسخاً وثبتت كل شيء آخر. جميل جداً. لكن في الوقت نفسه، سوية مع الصناعة، فإن انحدار الروح والبرود والأنانية والجشع والزيف والخيانة وكل الصفات والمشاعر التي تبدو أكثر انحداراً وأكثر تنافياً مع الإنسان المتمدن، هي ما زالت على عرش السلطة، ووجوهها تتبدل بلا نهاية. أمّا الخير فينتظر.

XLV

لا علاج للغيبة، وتحديدًا لآثارها المكربة في نفس المغتاب، أعظم من الوقت. إذا ما انهال العالم بنقده على طبع من طبائنا أو شأن من شؤوننا، سيئاً كان النقد أم جيداً، فلا حاجة بنا سوى إلى التجاهل والمواصلة. إذ

ما أن يمرَّ وقتٌ قصيرٌ، حتَّى تصيرَ المادَّةُ مستهلكةً،
وينبذها المتقولون أنفسهم طلباً لأخرى أكثرَ جدَّةً. أمَّا
عندما نكون أكثرَ تحديداً وثباتاً في مواجَهتنا للأمر،
ونحقرُ تلك الأصوات، فسرعانَ ما يتحوَّل ما كان ليبدو
عند الوهلة الأولى مُداناً أو غريباً إلى شيءٍ معقولٍ
وعاديٍّ: لأنَّ النَّاسَ عادةً، أولئك الذين يعتقدون بأنَّ من
لا يستسلم هو المذنب، يدينون في النَّهاية أنفسهم،
ويبرؤوننا. يتجلَّى من هذا شيءٌ، هو ملحوظٌ جداً، أنَّ
الضعفاء يعيشون حسب نزعات العالم، والأقوياء حسب
نزعاتهم.

XLVI

ليس مدعاةً للفخر، ولا أدري إن كنت أعني
للإنسان أم للأخلاق، أن نرى في جميع اللغات
البشريَّة، القديمة والحديثة، أنَّ اللفظة نفسها التي تحيلُ
إلى معاني الخلق في لغة تحيلُ إلى معاني الحماسة في لغةٍ
ثانية، إنسانٌ خلوقٌ هنا يساوي إنساناً أحمق هناك.
ثمَّة كثيرٌ من الأمثلة على هذا، كما الكلمة التي
تُلفظ *dabbenaggine* في الإيطالية وتحيلُ إلى الإخلاص

أو الورع المفرط، تُلفظ ذاتها في الإغريقية εὐνηνός،
εὐνηνεία لكنّها تعني هنا قليل النّفع. تقديرٌ كبيرٌ للأخلاق
أظهرته المجتمعات على مرّ العصور؛ الأفكار
والعواطف الحميمة تجاهها قد قيلت، حتّى رغماً عن
الأخلاق نفسها أحياناً، أي في تلاعب الصياغات
اللغويّة. لطالما، إذن، كان حكم المجتمعات، برغم
استتاره الدائم، وبرغم التناقض بين اللغة والسُّلوك،
ولأنّها تعرفُ جيّداً أنّ من في مقدوره أن يختار فسيختار
أن يكون خيراً- أقول، لطالما كان حكمها: الحمقى
طيبون لأنّهم لا يملكون سوى أن يكونوا كذلك.

XLVII

الإنسان مُدانٌ، إمّا لأنّه قضى الشّباب عبثاً وبلا
غاية في عمرٍ هو الوحيد الذي يمكنه من أن يزرع ما
سوف يجنيه عندما يبلغه الكبر، وإمّا لأنّه قضاه في
تحصيل الملذّات وتوفيرها لأجل تلك السنوات المقبلة،
عندما لا يعود قادراً على التلذُّذ.

XLVIII

تُرى إلى أيّة درجة هو عظيمُ الحبِّ الذي وهبتنا
إيَّاه الطَّبيعة نحو أشباهنا؟ يمكنُ معرفة ذلك من كلِّ فعلٍ
يقوم به الحيوان. فالطفلُ عديمُ التَّجربة إذا ما حصل
ووقع نظره على مرآة ما، يعتريه غضبٌ واضطرابٌ عارمٌ
لأنَّه يحسبُ الصورةَ مخلوقاً مشابهاً له، فلا يوفِّرُ أيَّ
سبلٍ ممكنة لسحقِ ذلك المخلوق وقتله. أما الطُّيورُ
الدَّاجنة، تلك الوادعة مثلما هي كذلك الطُّيورُ في
الطَّبيعة، تندفعُ نحوَ المرآةِ باستياءٍ شديدٍ، صارخةً بفمٍ
مفتوح على مصراعيه وأجنحتها مقوّسة، وتنهال على
المرآة نقراً. والقرد، عندما يُتاحُ له ذلك، فإنَّه يرمي
بالمرآة أرضاً ويشرعُ يدوسها بقدميه.

XLIX

بحكمِ الطَّبيعة، يكرهُ الحيوانُ شبيهه، وهذا
مطلوبٌ لجهة النزعة التي فيه، التَّعدِّي. لهذا، ليس في
مقدور الإنسان الهرب لا من الكراهية ولا من العداوة:
أمَّا الازدراء فقد يُقدَّرُ عليه. كثيرةٌ هي المرآت التي نرى

فيها الشَّبَاب والأشْخاص الخارجين حديثاً إلى العالم
ينحنون احتراماً لمن يستقوي عليهم، وهم لا يفعلون
هذا لرعونة فيهم، ولا لغاية عندهم، ولكن لمجرد
الرَّغبة في الأَّجَل يجلبوا العداوة على أنفسهم، وطبعاً لسلب
النُّفوس. في النَّهاية، هم لا ينالون شيئاً من تلك الرَّغبة،
وبطريقةٍ أو بأخرى لا يفعلون سوى جرح اعتبارهم
لأنفسهم. ذاك أنَّ المحترَّم يزيدُ تقديره لنفسه، والمحترَّم
ينقص. هاكم نصيحتي، لا تسع وراء الآخرين لجاهٍ أو
منفعة، ولا حتَّى للفوز بمحبَّتهم التي لن تُطال بطبيعة
الحال. احفظُ تمامَ رفعتك، معطياً للآخرين لا أكثر ممَّا
أنت مدينٌ لهم به. أعرفُ، القليلُ سوف يكونُ مبعوضاً
ومضطهداً، ولكن ليس مُزدرىً دوماً.

L

في كتابٍ للحِكَم والأقوال المأثورة يملكه
العبرانيون، منقولٍ، كما يُقال، عن العربيَّة، فيما يؤكِّدُ
آخرون بما يشبه اليقين أنَّه عبريٌّ محضٌ، نقرأ من بين
كثيرٍ من الأشياء الأخرى التي لا قيمة لها، أنَّ أحد

الحكماء، ولا أعرف من يكون، يجيب على قول أحدهم له: أتمنى لك الخير، قائلاً: أه، ولم لا؟ ما دمت لست من ديانتي، ولا من أهلي، ولا جاري، ولا شخصاً له صلة بي. الكراهية نحو أشباهنا، هي أعظم نحو الأكثر شبهاً. اليافعون هم، لألف سبب وجيه، أكثر ميلاً نحو إقامة الصداقات من غيرهم. مع هذا، فهو أمرٌ شبه مستحيل أن تنشأ صداقة قد تدوم طويلاً بين اثنين يعيش كلاهما الحياة النمطية للشباب نفسها. أعني ذلك النمط من الحياة التي تُسمى هكذا في زمننا، والتي تتركز أساساً حول النساء. بل إنني أقول إن نجاح هذا الأمر بين هذين هو أقل الممكن، سواء بسبب اللهبان المتوقع للعوطف، أو بسبب المنافسة في الحب والغيرة التي من المستحيل تجنب نشوئها بينهما، وطبعاً لأن، كما تلاحظ مدام دي ستيل⁽¹⁾، الحظ الزاهر مع النساء دائماً ما يولد أحقاداً، حتى في نفس الصديق الأعظم للمحظوظ. النساء يأتين بعد المال، تلك القضية التي

(1) هي آنا لويس جرماين دي ستيل هولستين (1766-1817)، كاتبة كان لها تأثير في أوروبا بدايات القرن التاسع عشر، المترجم.

يكون فيها الرّجال أقلُّ قابليّةً للجدال وأقلُّ قدرةً على الاتّفاق، وحولها ترى المعارف والأصدقاء والأخوة يتبدّلون في الظّاهر والجوهر: هنا، يتحوّلون إلى همجٍ ووحوش. وإذا كان الأمر يبدو هكذا أقلُّ تأنسنا عندما يتعلّقُ بامرأة، فهو أيضاً أكثر تحاسداً منه فيما لو كان متعلّقاً بالمال؛ الأوّل محضُ عبثيّة، أو بالأحرى، لنقل هكذا، محضُ انوهامٍ بالحبِّ الخاصِّ والشّخصيِّ، الذي هو بالنسبة للجميع الحبُّ الخاصُّ والشّخصيِّ. وحيث أنّ جميع الرّجال سواءٌ في هذا، لا يمكن أبداً أن ترى واحداً منهم يحمل امرأةً على الابتسام أو يسمعها كلماتٍ رقيقة، خشيةً أن يضعه الحاضرون، سواء في العلن أو في السّريّة، في دائرة السّخرية. أيّاً يكن، وبما أنّ نصف المتعة عند أولئك المحظوظين في هذا، مثلما هو كذلك عند الجميع في أكثر الأمور الأخرى، يكمنُ في الإخبار عنها، فغنيٌّ عن القول إنّ الشّبّاب يحقّقون متعتهم الغالية هذه قبلَ كلِّ شيءٍ مع أقرانهم الشّبّاب: ولكيلا تكون القصةُ مضجرةً لأحد، فهم في أغلب الأحيان، حتّى عند روايتهم للحقيقة، يحرصون أن يطعموها بالظّرافة.

LI

بمعرفة كم هي قليلة المرات التي يكون فيها
الإنسان موجهاً في أفعاله وفق تقدير صحيح لما قد يفيد
أو قد يضره، تمكن معرفة كم هو من السهولة بمكان أن
يترك مظللاً ذاك الذي، في اجتهاده للعثور على حل ما
مخفي، تجده يتفكر ملياً: ترى على من سوف يعود
النفع الأعظم الذي ينتظر لأجله، له أو للآخرين؟ ذلك
الحل. يقول غويتشارديني⁽¹⁾ في بداية الكتاب السابع
عشر، متحدثاً عن المجادلات التي دارت حول
القرارات التي كان ليتخذها فرانتشيسكو الأول، ملك
فرنسا، بعد تحرره من قلعة مدريد: «يعطي أولئك الذين
يجادلون في هذا الشأن اعتباراً لماهية القرار الذي عليه
اتخاذُه منطقياً، أكبر مما يعطون لما هي عليه طبيعة
ورزانه الفرنسيين. هذا، بالطبع، خطأ كثيراً ما تقع فيه
الآراء والأحكام التي تُتخذ بتأثير من نزعة وإرادة
الآخرين». لعل غويتشارديني هو المؤرخ الوحيد بين

(1) فرانتشيسكو غويتشارديني (1483-1540)، مؤرخ إيطالي يُعدُّ أب التاريخ
الحديث وذلك لاعتماده على الوثائق الحكومية في دراسته لتاريخ
إيطاليا، المترجم.

الحديثين الذي عرف الإنسان جيِّداً، وبنى فلسفته حول الوقائع على قاعدة المعرفة بالطبيعة الإنسانية، وليس فقط على محض علومٍ سياسيةٍ مستقلةٍ عن علوم الإنسانيَّات، وفوق ذلك وهميَّة، لطالما عوّل عليها المؤرِّخون، وتحديداً أولئك الذين هم خلف الجبال وخلف البحار، الذين قصرُوا نقاشاتهم على الوقائع فقط دون إِتِّعاب أنفسهم بالتفكير أكثر نحو الأمام، غير سعيدين، كما هو حال الطائفة العظمى منهم، بهذا الأسلوب في قصِّ التاريخ.

LII

ظنِّي، لا أحد يتعلَّمُ فنَّ العيش، ما لم يتعلَّمُ فنَّ مُسارَّةِ الهبة، هذه المفردة الصَّغيرة الخالصة خلوصَ النِّقاء، وأعني الهبة التي قد تأتينا من الآخرين، وبالأخصَّ تلك التلقائيَّة، ذاك أنَّها جليلةٌ ومُضاعفةٌ: ليس فقط هي، ولكن أيضاً السُّؤلَ الأزليَّ وبلا نهاية للأشياء التي يؤتاها الآخرون باستحقاقهم، هؤلاء الذين يعيِّنون أحوال وظروف الشيء، ثمَّ باجتهدهم الخاصَّ ينالونه. ولو حدثَ في النِّهاية وبسبب اضطرارك، أو

انهزامك تحت وطء الحاجة، أو لأي سبب آخر، أن عميت فرأيت سؤالك يمكن أن يؤتى من لدن أحدهم، فسوف تجد وجه هذا يمتنع ويشحب، وبعد أن بيدل الحديث، أو يجيب بكلمات ليس لها أي معنى، يتركك معلقاً بلا نتيجة. ومذاك اليوم، ولأمد ليس بقصير، لن يكون من حسن طالعك إذا ما حصل وجمعتك به المصادفة، وإذا ما استذكرته بمكاتبة في إحدى المناسبات، فلا تنتظر رداً. لا يحب الإنسان فكرة التَّنْفِيع، لأنَّ التَّنْفِيع مزعجٌ في حدِّ ذاته، ولأنَّ حاجات النَّاس ومحنتهم تولدُ متعةً ما في نفوس الآخرين، لكنه يحبُّ كثيراً فكرة المنفعة، والمجانبة المقابلة، وذاك التَّفُوق الذي يجيء به الانتفاع. في الحقيقة، هذا النمط لا يهبك إلاَّ الشيء الذي لا يريد إعطائه لك: وبقدر ما يراك مترفعاً ومتمنِّعاً، بقدر ما يُصرُّ على أن تأخذ الهبة، أوَّلاً لرغبة الإذلال، وهو المرجح، وثانياً والأقل ترجيحاً للخوف من أنك قد ترفضها. هكذا، لخفة تبصرهم في تقدير الخطر المحقق في أن يعودوا مخذولين، تراهم يندفعون بجرأة لا توصف وبعناد يتجاوز كلَّ الحدود، غير راجين أكثر من أن يسمعوا

كلمة شكر. لكن ما أن يسمعوا سُؤْلَكَ الحَقِيقِي، حتَّى
تراهم يولُّون أدراجَ الرِّياحِ.

LIII

يقول بيونه، أحد الفلاسفة القدماء: من المستحيل
أن تُحَبَّ من الجموع، ما لم تُصِرْ فطيرةً أو نبيذاً حلواً.
بيد أن هذا المستحيل دائماً ما كان، بحكم النزعة
المجتمعيَّة للإنسان، مطلباً للجميع، مطلباً من يقول
بذلك، ومطلباً من قد يعتقد بغير ذلك: يا للعارفين في
الإنسان، كيف أنَّهُم، ومنذ الأزل الأوَّل لوجوده،
يواظبون حتَّى موتهم على البحث عن السَّعادة، ويعدون
بها.

LIV

خُذْهُ مَبْدَأً عَامًّا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِأَمَدٍ قَصِيرٍ، أَنَّ
الإنسان، وبرغم أيِّ ثبوتٍ وجلاءٍ لُضدِّ ما يصدِّقه، لا
يتراجع أبداً بينه وبين ذاته، بل ويخفي ذلك على
الجميع، عن تصديقه بمضدود ذلك؛ التَّصديقُ أساسِيٌّ
لهدوء النَّفسِ، وَلِنَقْلِ هَكَذَا، لِلتَّمَكُّنِ مِنْ مواصلة الحياة.

الشيخ، لاسيما إذا كان شديد التعلق بالدنيا، فإنه،
وبرغم زعمه بعكس ذلك، لا يرجع في سريرة عقله قيد
أنملة عن التصديق بأنه ما زال، بفضل استثناء خاص
جداً له عن القاعدة الكونية، وبطريقة مجهولة وعصية
حتى على فهمه هو، قادراً على ترك انطباع ما عند
النساء: وإلا فإن حاله سيكون في منتهى البؤس لو صدق
كلياً بأنه مقصي في كل شيء وإلى الأبد عن تلك النعمة
التي في سبيلها، مرةً بهذه الطريقة ومرةً بتلك، مرةً أكثر
ومرةً أقل، يضيع الإنسان المتحضر نعمة الحياة، هكذا
دائراً على نفسه. المرأة سيئة الصيت، ومع أنها تقرأ كل
يوم ألف علامة في وجوه الناس عن رأيهم فيها، لا شيء
يمكن أن يزعجها عن التصديق باستمرار بأنها في
اعتقاد الجميع امرأةً سالحة، وبأن عدداً صغيراً فقط من
المؤمنين القدماء والجدد على أسرارها (أقول صغيراً
بالنسبة إلى تعداد الشعب) يعرفون، ويخفون على
العالم، وحتى واحد منهم على الآخر، سرَّ حقيقتها.
الرجل الضعيف، وبسبب ضعفه وقلة جرأته، وبرغم
نباهته بأحكام الآخرين، لا يملك غير أن يصدق بأن
طريقة تصرفه تؤول في أذهانهم بأفضل معنى، وبأن

السَّبب الحقيقي وراء ذلك التَّصرُّف ليس بأيِّ حالٍ من الأحوال مُحتَوَى في أذهانهم. كمثلي هذا، يُصدِّقُ المشعوذ بأنَّ المريض الذي على شفا الموت لا يعطي أيَّ رجاءٍ للأطباء وللأصدقاء، ولكن فقط للجلال الخصوصيِّ لحضوره، هو الذي وحده بيده الخلاص من الخطر الحاضر. ولن أتطرق إلى التَّصديق واللاتصديق الرَّائعين للأزواج تجاه زوجاتهم، فهذه مادةٌ قد تصلحُ للرواية، لعرضٍ مشهديٍّ، لصوغِ طرفةٍ ولابتسامةٍ لامحدودة حول تلك الشعوب التي تعدُّ الزَّواجَ وثيقةً تقبلُ الإلغاء. وهكذا، فقول هذا هو ليس محضَ تزييفٍ ولا محضَ حماقة، أنَّ الإنسان، بمن في ذلك ذاك الأكثر سداداً في الرَّأي، ينزعُ في كلِّ مرَّةٍ إلى التَّصديق بمضدود ما لا يجلبُ السَّكينة والسَّلام للنَّفْس. لن أغفل القول بأنَّ الشُّيوخ هم أقلُّ استعداداً من الشَّباب على التَّخلي عن التَّصديق بما يعتقدون به واعتناق المعتقدات التي تجرحهم: لأنَّ الرُّوح عند الشَّباب هي أكثر قدرةً على تحويل جهتها بعكس جهة الشرِّ، وأكثر جدارةً على تثبيت المعرفة، أو الموت.

LV

المرأة التي تبكي بقلب صادق زوجها المتوفي يهزأ بها. في الوقت نفسه، إذا ما هي اضطرت، لأي سبب أو حاجة قاهرة، إلى الخروج إلى الناس، أو لمجرد خلع اللون القاتم لفترة وجيزة قبل أن تعود ثانية لارتدائه، تراها وقد مُطِرَتْ بوابلٍ من النِّقْد. هو قولٌ مستهلكٌ، لكنّه ليس كاملاً، القولُ بأنَّ العالمَ لا يرضى سوى بالظَّاهر. أضيفُ لأكمّله، أنَّ العالمَ لا يرضى بشيءٍ، وهو غالباً لا يكثرث، وغالباً ما يكون متعصباً تلقاء الجوهري. العالم القديم، كان يبحث أكثر عن أن يكون الانسانُ إنساناً جوهرياً لا إنساناً مظهر؛ أمّا هذا العالم فيطلبُ أن يظهر الإنسانُ إنساناً جوهرياً، لا أن يكونه.

LVI

الصِّراحة يمكن أن تنفع، لكن فقط عندما توظفُ في الفنِّ، فلندرتِها، لا تُمنحُ الثقة.

LVII

الإنسانُ يخجلُ ، لا من الأخطاء التي يقترفها ،
ولكن من تلك التي يتلقاها. لهذا ، لأجل أن يُحمَلَ
المخطئون على الشعور بالخجل ، لن يكون من سبيلٍ
آخر ، سوى تبديل المواقع.

LVIII

الرَّعِيدُونَ لا يَتَمَلَّكُهُمُ الحُبُّ بأقلِّ ممَّا يَتَمَلَّكُهُ
المتعجبين ؛ بل بأكثر ، أو لنقلُ بأكثر إحساساً ؛ ولهذا
السَّببِ هم يخافون : ويحرصون ألاَّ يَخِرُوا مشاعر
الآخرين ، لا تقديراً للكبر الذي يتصنَّعه أكثر المتكبرين
والمتغطرسين ، ولكن ليجنبوهم أن يُلدَغُوا تلك
اللدغات الأليمة التي لُدِغوها هم من كلِّ صوب.

LIX

شيءٌ قِيلَ أكثر من مرَّةٍ ، أنَّه عندما ينحدرُ الجوهرُ
يرتفعُ المظهرُ ، وعندما يفقرُ المعنى يتبرَّجُ المبنى . يبدو
أنَّ الكتابةَ هي الأخرى تخضعُ للمصير نفسه . هذا أنَّه في

زمننا، بقدر ما يفتقر النصُّ، لا أستطيع القول
لاستخدام، ولكن لظلال الأسلوب الجوهري، بقدر ما
تزداد روعة الطباعة، لا يوجد كتابٌ كلاسيكيٌّ طُبِعَ في
الماضي بمثل هذه الأناقة التي تُطبع بها اليوم المجلَّات
وغيرها من الدوريات السياسية التي تُشترى لترمي بعد
ساعات: أمّا فنُّ الكتابة، فلم يعد معروفاً، ولا حتّى
يُسمَعُ باسمه. أنا على يقينٍ من أنّ كلَّ إنسانٍ صالحٍ على
وشك أن يفتح الآن أو يقرأ كتاباً، سوف يشعر بالحزن
لهذه الأوراق ولهذه الأحرف الصارمة التّسيق،
والمسخرّة لحملِ كلماتٍ مُفزّعة، وأفكارٍ جُلّها مصابٌ
بالعطالة.

LX

يقول لا برويير⁽¹⁾ عبارةً جدُّ مُصيبة، أنّه أكثر
سهولةً أن ينالَ كتابٌ متوسط المستوى صيتاً من جهة أن
كاتبه هو ذو شهرةٍ ذائعة سلفاً، من أن ينالَ كاتبٌ ما
شهرةً من جهة أن كتابه فائقُ المستوى. يُمكن أن يُضافَ

(1) جان دي لا برويير (1645-1696)، كاتب مقالات فرنسي كان أستاذاً في
علم الأخلاق، المترجم.

على هذا القول، أنَّ الطَّرِيقَ الأَقْصَرَ إلى نيل الشهرة هي
التَّثْبُتُ بِقُوَّةٍ وَيَقِينٍ، وهذا ممكنٌ، من نيلِ الطَّرِيقِ نَفْسِهَا.

LXI

مغادراً سنيَّ الشَّبَابِ، يَظَلُّ الإنسانُ مُتَمَلِّكاً من
الرَّغْبَةِ بالتَّوَاصُلِ، أو لِنَسْمِهَا الرَّغْبَةُ بِبَيْتِ نَفْسِهِ لِلآخَرِينَ؛
هو يَعْرِفُ الآنَ بِأَلْمٍ أَنَّهُ قَدْ فَقَدَ ذَاكَ النُّوعَ مِنَ التَّأثيرِ
السَّاحِرِ الَّذِي يمارسُهُ الشَّابُّ على المحيطين، ويجعلُهُم
يعتلقونه، شاعرين كما لو أنَّ ثَمَّةَ نَزْعَةٍ ما خَفِيَّةٌ تنزعُ بِهِم
نحوه. يَعْرِفُ هذا، وَيَعْرِفُ الآنَ بِأَلْمٍ جَدِيدٍ آخَرَ، أَنَّهُ،
وهو في صحبتهم، مَفْصُولٌ عَنِ الجَمِيعِ، ومَحَاطٌ
بِمَخْلُوقَاتِ ذَاتِ مِشَاعِرٍ، هي نحوهٌ لَيْسَتْ أَكْثَرَ اِخْتِلافاً
بِكثيرٍ عَنِ تِلْكَ الَّتِي بَلَ شَعُورِ.

LXII

الأساس الأول لأن تكون مُعَدّاً للقليل من البذل،
هو الكثير من التَّقِيمِ.

LXIII

الفكرة التي يكونها الفنّان عن فنّه أو العالم عن علمه عادةً ما تكون رائعةً بنسبةٍ عكسيّةٍ إلى تلك التي يكونها هذا عن قيمةٍ فنّه في حدِّ ذاته، أو ذاك عن قيمةٍ علمه في حدِّ ذاته.

LXIV

ذاك الفنّانُ أو العالمُ أو المثقّفُ في أيِّ فرعٍ من فروع المعرفة، الذي اعتادَ أن يقارنَ نفسه، لا مع أنداده، وإنّما مع نفسه، هو بقدر ما يتفوّق، بقدر ما يتدهور رأيه في نفسه: هذا أنّه كلّما أوغلَ وعمّقَ في معرفةٍ نفسه، كلّما وجدَ نفسه أقلَّ رتبةً. هكذا هم متواضعون أغلبُ العظماء في التّاريخ، لأنّهم لا يتوقّفون عن مقارنة أنفسهم، لا مع الآخرين، وإنّما مع تلك الفكرة عن الكمال التي يملكونها أمام رُوحهم، ويعرفون إلى أيِّ درجةٍ هم بعيدون عن بلوغها، هذه الفكرة التي هي إطلاقاً أنقى وأعظم من تلك التي يملكها العامّة. أمّا هؤلاء، فهم يعتقدون بكلِّ بساطة، ومراةٍ بتيقنٍ كبير، أنّهم قد بلغوا، بل وفاقوا فكرة الكمال، هذا الذي يتفسّخُ في نفوسهم.

LXV

ما من رفقة تبقى ممتعة لنا على الأمد الطويل، إن لم تكن مع شخصٍ نحبُّ منه تقديره لنا. لذلك، عندما ترغب المرأة بالأبَّ تبطلَ رفقتها ممتعةً بعد فترة قصيرة، فإنها تجهد في كل لحظة على أن تبقى هي نفسها ممتعة، وهذا بأن تُطيلَ ما أمكن زمنَ تقديرها لتلك الرفقة.

LXVI

في هذا القرن، يُنظر إلى السود بأنهم من عرقٍ وأصلٍ مختلفين كلياً عن البيض، لذا فهم ليسوا كلياً متساوين مع هؤلاء بالنسبة إلى حقوق الإنسان. في القرن السادس عشر، وبالرغم من أن السود يتصلون بجذرٍ واحدٍ مع البيض، وهو ما أكده الأثنروبولوجيون الإسبان أكثر من سواهم، كان يُعتقد بأنهم، لحكمةٍ من الطبيعة أو حكمةٍ من الله، من مرتبةٍ أدنى بكثير من مرتبتنا. وفي ذلك أو ذاك القرن، كان السود ولا زالوا يُباعون ويُشترَوْنَ، ويُشغَّلون في الأقبية تحت نيران السَّياط. هذه هي الأخلاق: نعتقد بالنظريات الأخلاقية ثم لا نأتي إلى التطبيق.

LXVII

ليس موافقاً تماماً القول بأنَّ السَّامَّ هو مرضٌ عامٌّ.
العامُّ هو العطالة، أو هو، بكلمة أفضل، التَّعطيل؛
وليس السَّامُّ. السَّامُّ لا يكون إلاَّ عند أولئك الذين فيهم
شيءٌ من الرُّوح. حين تكونُ الرُّوحُ حياةً وقوَّةً في
الواحد، يكون السَّامُّ أكثر تردداً وإيلاماً. الطَّائفة العظمى
من النَّاس تجدُ تشبُّعها الكافي في أيِّ شيءٍ يَكُن،
ومتعتَّها الكافية في أيِّ إشباعٍ فارغ؛ ولهذا، فهي عندما
تتفرَّغُ من كلِّ شيء، لا تراها تجد في ذلك ألماً كبيراً.
من هنا لطالما أسيءَ فهمُ ذلك السَّامِّ الموجود عند
أولئك الرِّقِّي المشاعر، ولطالما قابلَ العامَّة الأمرَ مرَّةً
بالضحك ومرَّةً بأمارات الدهشة كلِّما سمعوهم يتحدَّثون
عن أنفسهم، مجرَّحينَ فيهم بكلماتٍ قاسية، ولعلَّ هذا
هو ما يمكن القول بتوافقٍ تامٍّ بأنَّه أعظمُ الأمراض في
الحياة وأكثرها شمولاً.

LXVIII

السَّامُّ هو بمعنى ما الأكثر جلالاً بين المشاعر
الإنسانية. لا لاعتقادي بأنَّه الرَّحْم الذي تولد منه تلك
الأفكار الرَّائعة التي يلتقطها الكثير من الفلاسفة، بل لأنَّه

فوق ذلك الشُّعورُ الذي لا يمكن لأيِّ شيءٍ دنيوي
إرضاءه، ولا حتَّى الدنيا بأسرها؛ انظر هذا الانفساح
اللامحدود للفضاء، الشُّسوع والعدد المدهش للعوالم،
تجده كُله ضئيلاً وصغيراً أمام السَّعة الهائلة للنَّفْس. تخيَّل
الكمَّ المُطلق من الكواكب، الكون المُطلق، تشعرُ أنَّ
النَّفْس والرَّغبة في الإنسان تتَّسع لهذا المُطلق؛ بعد هذا،
أن نَتَّهم الوجودَ بأنَّه ناقصٌ أو معدوم، أن نعاني الفقدَ
والفراغ والسَّأم، يبدو لي هذا أعظم إشارةٍ على الرُّوعة
والعظمة يمكنُ قراءتها في الطَّبيعة الإنسانيَّة. لذلك، كان
السَّأم قليلاً لدى الإنسان الفارغ، ونادراً أو معدوماً في
باقي الحيوانات.

LXIX

من الرِّسائل المشهورة لشيرون، تلك التي يحثُّ^١
فيها لوسيو س على تأليف قصَّةٍ عن مؤامرة كاتالينا، وفي
رسالةٍ أخرى أقلَّ شهرةً من هذه لكن لا تقلُّ عنها أهميَّةً،
نرى الإمبراطور فيرو يتوسَّل إلى معلِّمه فرونتون أن
يدوِّن، كما فعل فعلاً فيما بعد، أحداث الحرب المُدارة
من قبَله. رسائلٌ شبيهة تماماً بهذه التي تُكتب اليوم

للصحفيين ، ما عدا أن المعاصرين يطلبون مقالات صحفية فيما كان القدماء يطلبون كتباً. هكذا، فإن مصداقية القصة يمكن أن توضع موضع نقاش، لاسيما عندما يكون الكتاب معاصرين للمكتوب عنهم، ومن ذوي الصيت الذائع.

LXX

أكثر تلك الأخطاء التي نسميها طفوليةً، والتي عادةً ما يقتربها الشبان قليلو التجربة، وأولئك، سواء الشبان أو الشيوخ، المدانون من جهة الطبيعة لكونهم أكثر من رجال لكن أصغر من أطفال - هي أخطاء لا تكمن، عند التحقيق فيها، إلا في هذا: أن من يقول ذلك يظن ويحكم بأن الرجل هو أكثر طفوليةً مما هو في الحقيقة. يقيني، أن أقسى ما يكسر، حد الانهزام، الروح لدى الشبان وهم في ولوجهم إلى هذا العالم، هو ذلك التهاثر، التهاثر العام والجمعي، في العمل والتسلية والنقاش وفي ميول ونفوس الأشخاص: تهاتر، شيئاً فشيئاً، يتأقلم الشبان معه، لكن ليس دون ضريبة وألم، يجعلهم يتمنون لو يعودون مرةً أخرى أطفالاً. هكذا هو الأمر حقاً: أن الشاب نقي الفطرة وصافي السجية،

عندما يبدأ، كما يُقال، بالحياة الحقيقية، يغلبه شعورٌ
بالرغبة في التراجع، واللوذ قليلاً بالطفولة. يكتشف أنه
كان مُضللاً باعتقاداته السابقة، أن عليه الآن أن يصيرَ
رجلاً ويطرح عنه كل أثر للطفلية. ذاك أن القضية
معكوسة، فالإنسان عموماً، كلما تقدّم في السنين، كلما
ازداد قرباً من الطفولة.

LXXI

من هذه الفكرة أعلاه التي يملكها الشابُّ عن
الرجال، أعني أن يحسبهم رجالاً أكثر ممّا هم في
الحقيقة، ينشأ في نفسه ذلك الهلع الذي يولد عند كل
مرةٍ قد يفشل فيها، وعلى إثره يعتقد أنه قد فقد التقدير
المكنون له في عيون أولئك الشاهدين على فشله. لكن
قليلاً وتعود السكينة إلى نفسه، ليس دون اندهاشه منه،
حالما يُفاجأ بهم يعودون إلى معاملته مثلما كان دأبهم في
البداية. الناس غير مستعدّين بهذه البساطة لسحب اعتبار
الآخرين من نفوسهم، لأنّ الأمر أصلاً ليس في
مقدورهم، وهم ينسون الأخطاء بسهولة، لأنّ الأخطاء
أصلاً لا تنقطع وهي لا تُعدُّ ولا تُحصى. وهم ليسوا

متجانسين مع أنفسهم، إذ ليس مستغرباً أن يقعوا اليوم،
ببساطة، في حب ما كانوا يهزأون به البارحة. هذا يمكن
إثباته انطلاقاً من أنفسنا نحن، فكثيراً ما نغتابُ هذا
الشخص أو ذاك بكلمات جارحة، أو نأخذه هُزءاً، فإذا
ما صار في الغد في محضرنا عادَ إلى دائرة التقدير.

LXXII

مثلاً هو هذا الشابُّ موهومٌ بالخوف، كذلك هم
موهومون بالأمل أولئك الذين عندما يجدون اعتبارهم
قد قلَّ أو غابَ في نفس أحدهم، يجهدون بلجاج على
إظهار وتكرار كل أشكال التزلف والاحترام في سبيل
استرجاع مكانتهم. ليس التقدير بثمن الاحترام، ولا هذا
بمعادل له: التقدير مثل الصداقة، كلاهما مثل زهرة،
عندما تُقلع أو تداس لا يمكن أن تعود بعد ذلك أبداً.
ومن ذاك الاحترام المتزلف الذي يمكن أن نسميه هواناً
ذاتياً، لا يمكن أن يُجنى شيءٌ غير مزيدٍ من الشعور
بفقدان التقدير. صحيحٌ أن الازدراء، بما فيه ذاك غير
العادل، يبقى ألماً لا يمكن أن يُحتمل لأي إنسان،
فعندما نُمسُّ به، قليلون منا القادرون على الثبوت بلا

حركة، وعلى ألا يصارعوا، وبكل السُّبُل المتاحة بما فيها غير المجدية، يصارعوا للتَّحرُّر منه. ولعلَّها ظاهرةٌ جدُّ عامَّة لدى الرِّجال متوسِّطي الحال، أنَّهم يدَّعون الأنفة والتَّرفع مع أولئك الذين لا يختلفون حالاً عنهم ومع الذين يُظهرون اهتماماً بهم، لكنَّهم، عند أوَّل علامة على انعدام الاهتمام، سرعاناً ما يبدوون بالتذلل لئلاً يعانون جرأً تلك اللامبالاة، وتراهم يلجؤون لكلِّ فعلٍ رخيص. ولكن، هذا أيضاً صحيحٌ، أن تفعل، حين تشعرُ بنفسك مُزدريٍّ من أحدهم، بحيث تردُّ له بعلامات ازدراءٍ مُضاعفة: لأنَّك عندها، وهذا مرجحٌ تماماً، سوف تشاهدُ كيف يتحوَّلُ الفخرُ لديه إلى مهانة، لأنَّه ما من نظرةٍ أكثر ازدراءً من نظرةٍ تتصاحبُ فيها إشاراتُ الإذلال مع إشارات التقدير، وهذا أشدُّ العقاب.

LXXIII

مثلاً هنَّ كُُلُّ النِّساء تقريباً، كذلك هم الرِّجالُ عموماً، وبالأخصَّ الأكثر رفعةً، يزدادون شراً وتعصباً أمام الإلغاء والتَّحقير، أو بالأحرى أمام الحاجة، ولا يكفون في الوقتِ نفسه عن الظُّهور بأنَّهم مُهمَلون

ومُهانون. ذاك أن تلك الرِّفعة ذاتها التي تجعلُ ذاك العدد غير المحدود من أصحابها يستكبرون على المذلولين وجميع من يقدِّمون لهم أمارات التَّبجيل، هي ذاتها التي تجعلهم أرقاء الحاجة إلى ذاك التَّقدير وتلك النظرات في عيون من لا يهبُّهم إيَّها أو يُظهرُ لهم أنَّها غير موجودة. من مثل هذا، تنشأ، وليس نادراً بل كثيراً وليس فقط في الحُبِّ، علاقاتٌ فكِّهة بين شخصين، فمرةً هذا ومرةً ذاك، وفق إيقاع لا نهاية له، اليوم مُهمِّلٌ لا مُهمِّلٌ، وفي الغد مُهمِّلٌ لا مُهمِّلٌ. بل يمكن القول إنَّ هذه اللعبة من العلاقات هي بمعنى ما، قليلاً أو كثيراً، جليَّةٌ في جميع المجتمعات الإنسانيَّة. فكلُّ مكانٍ في العالم مليءٌ بأولئك الذين إذا سُئلوا يهملون، وإذا حُيوا لا يردُّون، وإذا تُبعوا يفرُّون، ثمَّ إذا أديرت لهم الأكتاف أشيحت عنهم الوجوه، يستديرون، ويهرعون خلفَ الذي أهانوه، ثمَّ ينحنون.

LXXIV

الرِّجال الرَّاؤون، وبالأخصَّ أولئك الذين يشعُّون بلاأة رجوليَّة فائقة، يبدو العالم أمامهم مثل امرأة. هي لا تستحسنه فحسب، ولكن تشغفُ به. ذاك أنَّها تقعُ في

حبُّ تلك القوَّة. غالباً، كما يحدثُ للمرأة، الحبُّ نحو
هؤلاء يكون كبيراً، وذلك باسم الإذلال الذي يُظهرون،
والسُّوءى التي يفعلون، والخوف الذي يبثون في نفوسِ
المُسْتَضْعَفِينَ. كمثلي هذا، كان نابليون معشوقاً من
فرنسا، ومعبوداً حتَّى من الجنود الذين كان يدعوهم
باللحم المدفعي⁽¹⁾ ويعاملهم على هذا الأساس. وكمثله
كثيرون ممَّن كانوا دائماً محبوبين لشخصهم وبغضِ
الطَّرْفِ عن أفعالهم في الحياة، واليوم نرى في كتب
التَّاريخ كيف أنَّ المؤرِّخين مُستدرِّجون إلى ذلك الحبِّ.
لعلَّ شيئاً من التَّوحُّش والإغراب مرغوبٌ عند هؤلاء
أيضاً، مثلما هو مرغوبٌ عند النساء من عشاقهنَّ. في
رأبي، شخصيَّةٌ مثل أخيل هي جديرةٌ كلياً بالحبِّ: أمَّا
شخصيَّاتٌ مثل إنياس وغوفردو، وحكمة هؤلاء وحكمة
عوليس، فجميعها لا تولد تقريباً غير الكره.

(1) تعبيرٌ يُطلق على الجنود الذين يُخاطر بهم بإرسالهم إلى المعركة
بإمكانياتٍ ضئيلة لا يمكن أن تبقِيهم على قيد الحياة، المترجم.

LXXV

في معانٍ أخرى كثيرة، المرأة هي مثلُ صورةٍ لما هو عليه مُجَمَلُ العالم: ذلك أن الضَّعْفَ هو سمةُ العدد الأعظم من الرِّجال، وهذا الضَّعْفُ، مقابل القليلين أقوىاء الفكرِ أو القلبِ أو اليد، يجعلُ تلكَ الأكثريةَ تبدو مثل ما تبدو عليه الأنثى أمام الذكر. وعليه، فبنفسِ سبيلِ التَّفَنُّنِ يُنَالُ الاثنان، المرأة والجنس البشري: فبإقدامٍ ممزوجٍ بالرفقة، بالصبرِ على التَّمُنُّعِ، بالمواصلة بثباتٍ وبلا خجل، تُحَلُّ المشكلة، كما مُشكلة المرأة، كذلك مشاكل السَّادة والأثرياء وجلِّ الرِّجالِ عموماً، وكذا مشاكلُ الأمم والعصور. كما مع المرأة يُقاتلُ المنافسون، ويضربُ حولها طوقٌ من العزلة الغيور، كذلك في العالم، من الضَّروري طرحُ المنافسين والأصحاب أرضاً، والعبور جهةً الغاية فوق أجسادهم: ويُقاتلُ هؤلاء منافسيهم بالأسلحة نفسها؛ اثنان من بينهما أساسيان جداً، التَّفَلُّيقُ والابتسام. مع المرأة ومع العالم، لا شيء أبداً يُنال، ولهُوَ تعيس الحظُّ من يقعُ في حبٍّ لا هو زائفٌ ولا فاتر، وكذلك مَنْ يفضِّلُ أحلامه على نفسه. والعالمُ هو صورةٌ عن المرأة، يتسلَّى بمن يقع في حبه برهةً، ثم يمضي عابراً فوقه.

LXXVI

لا شيء أكثر ندرةً في العالم من امرئٍ يُحتمَل.

LXXVII

يُنظر إلى الصِّحَّةِ في العالم على أنَّها آخرُ المتاع،
وقليلةٌ هي في الحياة الأفعال والمبادرات المهمة، التي
لا تكون مرتبةً الصِّحَّةِ فيها، هذا إن كانت موجودةً
أصلاً، مُلحقةً بمرتبةٍ أخرى. السَّببُ يمكن أن يكون في
جزءٍ منه، وليس في كُلِّيته، أن الحياة هي في الأساس
للأصحاء، الذين، مثلما هو الحال دائماً، إمَّا يتجاهلون
وإمَّا لا يعتقدون بأنهم من الممكن أن يخسروا ما
يملكونه. لذكرِ مثالٍ من بين ألف، أنت ترى كيف
يقيمون العديد والعديد من المنشآت عندما يبنون لنا
مدينةً جديدةً، ولكنك قد لا تعثر أبداً على منشأةٍ واحدةٍ
للصِّحَّةِ في مكانٍ سوف يعجُّ بعد قليلٍ بالأحياء. ومن
الجهة المعاكسة، أنت لا ترى مكاناً على وجه الأرض
غير صحِّيٍّ وبائسٍ إلا وترى الناس فيه يتأقلمون بجميع
الوسائل الممكنة لأجل البقاء. ومكانٌ ما هو الآن صحِّيٌّ
وغير مأهول، هو بعد قليلٍ مزدحمٌ وممرضٌ: كثيراً ما

ترى السُّكَّانَ يهجرون المدنَ والمُنَاخاتِ الصَّحِيَّةَ،
ليقيموا تحتَ سَمَاوَاتِ حَامِضِيَّةٍ، وفي أَمَاكِنَ لَيْسَتْ فَقَطْ
غَيْرَ مُعَافَاةٍ، بَلْ وَنِصْفُ مَوْبِوَةِ، سَعِيًّا وَرَاءَ الرَّغْدِ.
لندن، مدريد، وكثيرٌ مثلها، هي مدنٌ بظُرُوفِ صِحَّةٍ
بائِسةٍ، لَكِنَ لِأَنَّهَا عَوَاصِمٌ، فَكُلُّ يَوْمٍ تَرَى أَمْوَاجًا مِنْ
الزَّحْفِ البَشْرِيِّ نَحْوَهَا، تَارِكَةً وَرَاءَهَا الأَقَالِيمَ الأُخْرَى
بِمُنَاخَاتِهَا الأَكْثَرِ صِحَّةً. وَلَا نَبْتَعِدُ كَثِيرًا عَنِ بِلَدِنَا، فَهِنَا
فِي تَوْسَكَانَا لِيْفُورِنُو، وَبِسَبَبِ ازْدِهَارِ التَّجَارَةِ فِيهَا، فَهِيَ
فِي نَمُوِّ سَكَّانِيٍّ مُتَوَاصِلٍ، أَمَّا عِنْدَ تَخُومِ لِيْفُورِنُو نَفْسِهَا،
بِيْزَا، الْمَكَانَ الْمَشْهُورَ بِهَوَائِهِ النَّقِيِّ وَالْعَلِيلِ، وَالَّذِي كَانَ
فِي الأَمْسِ يَعْبُجُ بِالحَيَاةِ عِنْدَمَا كَانَتِ الْمَدِينَةُ ذَاتَ أَهْمِيَّةٍ
بَحْرِيَّةٍ، تَرَى الحَيَاةَ فِيهِ الآنَ وَقَدْ تَقَلَّصَتْ إِلَى مَا يَشْبَهُ
الصَّحْرَاءَ، وَهِيَ فِي كُلِّ يَوْمٍ تَتَبَدَّدُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ.

LXXVIII

إِذَا كَانَ شَخْصَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ مِثْلًا فِي مَكَانٍ عَامٍ أَوْ أَيٍّ
مَجْلِسٍ، غَارِقِينَ فِي الضَّحْكَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِطَرِيقَةٍ مَثِيرَةٍ
لِلْاهْتِمَامِ، فَيَأْتِيهِمْ سَوْفَ يَوْلَدُونَ فِي نَفُوسِ الْحَاضِرِينَ
ذَاكَ التَّوَثُّرَ مِنْ أَنَّ كُلَّ حَدِيثٍ بَيْنَ هَؤُلَاءِ قَدْ يَكُونُ جَدِيدًا،

لهذا ترى أكثرهم يصمت، البعض يغادر، أما الأكثر
جرأةً فيدنون من الضاحكين، مجربين كلَّ طريقةٍ لكي
يُقبلَ بهم في حلقة الضحك تلك. يبدو الأمر كأنهم
سمعوا فجأةً أصوات مدفعيةٍ قريبة وهم في الظلام،
فتراهم يتفرقون بهلعٍ في كلِّ اتِّجاهٍ، لا يعرفون أين يمكن
أن يضعوا أقدامهم فيما لو كانت المدفعية مستعدةً
للإطلاق. الضحك يستدرجُ التقدير والاحترام حتَّى
من الغرباء، ويجذب إليه انتباه جميع الحاضرين،
ويحيط الضاحكين بمثل هالةٍ من التفوق. ولو أنك،
وكما يحدث، وجدتَ نفسك وأنت في مكانٍ ما
مُتجاهلاً أو معاملاً بأنفةٍ أو فظاظة، فلن يكون أمامك من
سبيلٍ سوى أن تختار من بين الحضور واحداً يبدو لك
الأنسب، ثم تغرق معه بالضحك بأريحيةٍ وصراحةٍ
ومثابرةٍ، متظاهراً قدر المستطاع بأن الضحكة خارجةٌ من
قلبك: بل ربَّما لو أنك رأيت البعض يأخذونك
أضحوكةً، لضحكت معهم بصوتٍ أكثر وضوحاً وأطول
نفساً من أصواتهم هم. ولعلك ستكون سيئ الحظَّ جداً
لو أن الهازئين، وبالأخص أكثرهم غطرسةً وإزعاجاً،
وأولئك الذين يشيخون عنك وجوههم، طلبوا منك وقد

رأوا ضعف ممانعتك، أو بقائك في مجلسهم بدل أن
 توليهم دُبرك، أو أنك لم تطلب منهم أن يدعوك بسلام-
 أقول، ستكون تعيس الحظ لو أنهم، بعد هذا، اهتموا
 بالحديث معك، وعرضوا عليك صداقتهم. حقاً، جليل
 هو الضحك للإنسان، وجيل هو ذاك الرعب المنبعث
 من جبروت الضحك: هذا الذي قبالتة لا أحد مُحصن
 بالمعرفة. من لديه شجاعة الضحك هو ملك على
 العالم، من لا، هو يُعدُّ للموت.

LXXIX

لن يعرف الشاب فن المعيش، ولن، لنقل هكذا،
 يحقق تألقاً باهراً في المجتمع، ويختبر بعض هذه
 المتعة، ما دامت الرغبات ملتهبة في نفسه. بقدر ما
 يتردد، بقدر ما يصير أقدر على التعاطي مع نفسه ومع
 الآخرين. الطبيعة، تطفأ، حكمت بأن الإنسان لا يتعلم
 العيش إلا بالتناسب مع زوال أسباب العيش. لا يكتشف
 الطريق المؤدية إلى غايته إلا بالتوقف عن اعتبار تلك
 الغاية مثل سعادة فردوسية، لأنه عندما يحصل عليها
 سيرى كيف أن الفرح بها ضئيل. وحكمت الطبيعة، أن

الإنسان لا يستمتع إلا عندما يصير عاجزاً أمام المتعة القويّة. كثيرٌ من الشبّان يبلغون هذا المكان الذي أتحدّث عنه، وليس قليلاً ما ينجحون، لأنّهم يرغبون بخفّة، وذاك أنّه في الأصل، تكونُ حِقْبَةُ الرَّجُولَةِ مُعَدّاً لها بتواطؤِ التَّجْرِبَةِ مع الحِذَاقَةِ في نفوسِهِم. الآخرون، لا يبلغون أبداً في حياتِهِم تلك البُلْغَةَ. أولئك تكونُ ضَعِيفَةً في داخلِهِم قوَّةُ المشاعر، أو قد تكونُ قويَّةً في البدء ثم لا يُلبِثُها تقدُّمُ السِّنِّينَ أن تتبدَّد: ولو كانت الطَّبِيعَةُ اختزلتُ الحياةَ إلى متعة، لكان لهم، أكثر من جميع الآخرين، الحِظُّ بالتمتُّعِ فيها. أمّا هؤلاء، فعلى العكس، هم محزونون، وأطفالٌ حتّى الموت في عالمٍ لا يفهمونه.

LXXX

هَلَعْتُ لِمَرَأَى شَخْصٍ التَّقِيْتِهِ مِصَادِفَةً مِنْ جَدِيدٍ، وَكُنْتُ قَدْ عَرَفْتَهُ شَابّاً مِنْذُ سِنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ، فَلِلْوَهْلَةِ الْأُولَى بَدَأَ لِي أَنِّي أَنْظُرُ إِلَى شَخْصٍ أَثْقَلْتُ عَلَيْهِ الْمِحْنَ. إِنَّ مَظْهَرَ الْبَهْجَةِ وَالثِّقَّةِ لَا يَبْقَى كَمَا كَانَ فِي الْمَاضِي: وَهَذَا الشُّعُورُ بِهِمَا الَّذِي يَتَبَدَّدُ، وَذَلِكَ الرِّضَا الْجَسَدِيِّ الَّذِي يَتَلَاشَى يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، حَتَّى دَاخَلَ أَوْلَئِكَ الْمُسْتَهْتَرِينَ أَوْ ذَوِي الطَّبِيعَةِ الْفَكِهَةِ، وَكَمِثْلِهِمْ أَيْضاً الْأَكْثَرُ سَعَادَةً، يَنْشَأُ

مكانهما حجابٌ تعبيرىٌّ مُبهمٌ، يُسمى بالوقار؛ هو حقاً،
إذا ما فوضِلَ بينه وبين أساريرِ شابٍّ أو طفلٍ، مثيرٌ
للشفقة.

LXXXI

يحدثُ في المحادثة مثلما يحدثُ مع الكتابِ:
كثيرٌ منهم يكون لديه في البداية أفكارٌ جديدةٌ ولونٌ
خاصٌ يثمنُّهما الكثيرون؛ ثمَّ، شيئاً فشيئاً، وكتاباً إثر
كتابٍ، يُصاب القارئُ بالسَّأمِ، لأنَّ جزءاً من كتاباتهم هو
تقليدٌ للجزء الآخر. هكذا في المحادثة، الأشخاص
الجُدُد هم غالباً مرغوبون ومقدَّرون لمواضيعهم
وأسلوبهم في الكلام، لكن هم أيضاً يصبحون مملين مع
الاعتیاد ويسقطون من التقدير: لأنَّ النَّاسَ، وبحكم
الضرورة، بعضهم أكثر وبعضهم أقل، عندما لا يقلِّدون
الآخرين، يقلِّدون أنفسهم. أمَّا أولئك كثيرون السَّفر،
وبالأخصَّ إذا كانوا أشخاصاً حاذقين ضالعين في فنِّ
الحديث، فإنَّهم يتركون بسهولة، في الأماكن التي
يمرون بها، انطباعاً عن أنفسهم يفوق الحقيقة بكثير،
نظراً لهذه الفرصة التي تمكنهم من إخفاء تلك النقيصة
الطَّبيعية في الرُّوح: الفقر. زد على ذلك، أنَّ ذاك الكثير

الذي يكشفونه للآخرين في مناسبةٍ واحدةٍ أو مناسبتين ،
متحدثين بشكلٍ رئيسٍ عن أنفسهم وعن الأمور التي
تتعلق بهم ، محمولين على ذلك ، وبلا أيِّ تصنُّع ، من
كياسةٍ وفضول الآخرين - ذاك الكثير ، لا يُنظر إليه بأنه
تمام الغنى في نفوسهم ، بل بأنه قدرٌ ضئيلٌ من ذاك ، أو
لِنَقْلِ هَكَذَا ، عملةٌ نقديةٌ صغيرةٌ في بحر ثرائهم الهائل .
هذا الاعتقاد يظلُّ راسخاً ، لأنَّه لن يكون ثمةً مناسبةٌ
جديدةٌ لتَهْزُهُ . وللأسباب نفسها ، ومن الجهة المقابلة ،
يقعُ أولاء المسافرون بالخطأ ذاته ، إذ يقيِّمون بأعلى
بكثيرٍ من حقيقته الشَّخصَ الذي قد تجمعهم به المناسبة .

LXXXII

لا أحد يمكن أن يصير إنساناً قبل أن يكون معرفةً
عن نفسه ، وهذه يُعرِّفها هو نفسه لنفسه ، وبمجرد أن
يعيِّن على أساسها انطباعه الذاتيَّ حول نفسه ، فإنه
يستطيع بمعنىً ما أن يعيِّن مصيره ومكانه في الحياة . هذه
المعرفة العظيمة ، التي ما من أحدٍ في العالم يمكن أن
يأخذ منها أكثر ممَّا قد يأخذه طفلٌ صغير ، كان يمنحها
المعيش القديم مادةً جاهزة ولا نهائية : أمَّا اليوم ،

فمعيشة الفرد يفتقر إلى الإمكانيات، وفي كل أصقاع العالم، وبسبب فقدان تلك الفرص، كثير من الناس يموتون قبل تحصيل المعرفة التي أتحدث عنها، وهم لا زالوا في طفولة ذهنية هي أقرب إلى لو أنهم لم يولدوا. بالنسبة لآخرين، فتلك المعرفة وامتلاك النفس يأتیان عادةً إمّا من الحاجات والمحن، وإمّا من عاطفة قويّة، أي جارفة؛ وغالباً من الحبّ، حين يكون الحبُّ عاطفةً جارفةً؛ هذا شيءٌ لا يحدث للجميع مثلما يحدث مع المحبّة. لكن ما أن يحدث، سواء في مقتبل العمر، كما بالنسبة للبعض، أو متأخراً قليلاً وبعد قصص حبّ أخرى قليلة الأهميّة كتلك التي تحدث في أغلب المرّات وتحديداً عند الخروج من علاقة جارفة ومؤلمة - يكون الإنسان قد عرف الآن وعلى نحو متوسط أبناء جنسه، ذاك أنّه أفاد من ذاك التّداني المرافق للرغبات المُستهامة وللحاجات العنيفة غير المُشبعة ربّما من قبل؛ ويكون قد عرف عن خبرة طبيعة العواطف، هذه التي بمجرد اجترأ واحدة منها تتلهبُ البقيةُ جمعاءً؛ ويتعرّف كذلك طبيعة نفسه ومزاجاتها؛ يتعرّف حجم مقدرتها ومقدار قوتها؛ وهكذا يكون بمقدوره الآن أن يحكم على نفسه

باليأسِ أو بالأملِ حيالَ ما يمكن فعلُهُ لأجلِ المستقبلِ ،
لأجلِ المكانِ الذي يوجَّهُه إليه مصيرُهُ في هذا العالمِ . في
النَّهايةِ ، فإنَّ للحياةِ في عينيه صورةً أخرى ؛ لقد تبدَّلت
من شيءٍ مسموعٍ إلى مرئيٍّ ، ومن مُتخيلٍ إلى مُعاشٍ ؛
وهو يشعرُ الآنَ بأنَّه في مركزِها ، ربَّما لم يُعد سعيداً ،
ولكنَّه في آيَّةِ حالٍ أقوى من قبلِ ، أعني أكثرَ معرفةً بنفسِه
وبالآخرينِ .

LXXXIII

لو أنَّ تلكَ القلَّةَ ذاتِ البسالةِ الحقيقيَّةِ من الرِّجالِ
الباحثينِ عن المجدِ ، أدركتْ أنَّها هي التي ألفتُ
وشكَّلتُ الشَّعبَ الذي تُذيقه كلَّ صنوفِ العذابِ لتكونَ
مَهُوبَةً عندهُ ، لكانَ من المعقولِ أن تَهْدِيَّ من نفسها ،
وربَّما قد تقلعَ عن الأمرِ من أساسِه . كلُّ القضيَّةِ ، أنَّ
أرواحنا عاجزةٌ عن انتزاعِ نفسها من القوَّةِ التي يملكها في
المخيَّلةِ عددُ البشرِ : ونحنُ في مرَّاتٍ لا تُحصى نُعجَبُ ،
بل ونُجِلُّ ، لن أقولَ جمهوراً غفيراً ، ولكن عشرة
أشخاصٍ مجتمعين في غرفةٍ ، ولا يعني لنا واحدٌ منهم
شيئاً .

LXXXIV

يسوع المسيح كان أوّل من أشار بإصبعه بجلاء نحو ذاك الممدّح والمعلّم لجميع القيم الباطلة، بأنّه قدّاحٌ ومُفترٍ على جميع تلك الحقّة، ذاك المعارض لكلّ عظمة أصلية وجوهريّة في الإنسان، الهازيُّ بكلّ شعورٍ فائق، إذا لم يبدُ له زائفاً، وبكلّ عاطفة ودود، إذا بدت له حميمة، ذاك العبد للأقوياء، المستبدُّ بالضعفاء، المُبغضُ للمحزونين، الذي سمّاه يسوع المسيح: العالم، واسمه موجودٌ في كلّ اللغات، إلى هذه اللحظة. هذه الفكرة العامّة، التي هي جدُّ صادقة، والتي كانت وسوف تكون دائماً واقعيّة، لا أعتقد أنّه بعد ذلك الوقت قد جاء آخرون بمثلها، ولا أذكر أنّها موجودة، وأقصدُ بالقول بمثل تلك الفرادة في المعنى وتلك الدقّة في الشكّل، عند أيّ فيلسوفٍ رفيع المستوى. ربّما لأنّه ومنذ ذلك الوقت، لم يبلغ الجبنُ والتّضليل بعدُ غلّمتَهما، ولم تبلغ الحضارةُ تلك الرّتبة حيثُ تضعُ الجزءَ الأعظمَ ممّا لها مكاناً ما للفساد.

هذا هو إذن ما أقول، وهذا هو من عناهُ يسوع المسيح، إنّهُ الإنسانُ الذي اسمه الحضارة: الذي لا

المنطق ولا العقل يكشفان أسرارهم، والكتبُ والفنُّ
يفضحانه، والطَّبيعة تسميه الخرافيّ، والذي وحدها
معرفةُ الحياة تعترف به، وتدعوه الحقيقيّ. وما من فكرةٍ
مثل هذه شموليّة، ويمكن أن تكون مُقنعةً في كلِّ حرفٍ
فيها لعددٍ لا يُحصى من النَّاسِ.

LXXXV

عند الكتاب الملحدّين: عموميّة الإنسان المتمدّن،
والتي ندعوها بالمجتمع أو بالعالم، لن تجدها أبداً
معتبرةً أو معروضةً على أنّها عدوٌّ للخير، ولا أيضاً على
أنّها إفسادٌ مؤكّدٌ لكلِّ نزعة حميدة، وكلِّ نفسٍ مطلوقةٍ
على الاستقامة. «العالمُ عدوٌّ للخير»، هي محضُ فكرةٍ،
بقدرِ ما يُتغنّى فيها في الأسفار الإنجيليّة، وعند الكتاب
الحديثين، حتّى الجهلة منهم، بقدرِ ما كانت مجهولةً
عند القدماء. ولهذا، فلنْ يدهشَ مَنْ سوفَ يعتبرُ كلمتي
حقيقةً جليّةً وبسيطةً، الكلمة التي يمكن أن تصلحَ مرآةً
لكلِّ مَنْ يرغب بالمفاضلة بين القديم والحديث، وهي
أنّه: في حين أنّ المرّبين الحديثين يخافون الشَّعب، كان
القدماء يبحثون عنه؛ وفي حين أنّ الحديثين يجعلون من

الظَّلامَ البَيْتِي ، من العَزَلِ والمُعْتَزَلِ ، وِقَايَةً للشَّبَّانِ ضِدَّ
وباء العادات الدَّارِجَةِ ، كان القَدَمَاءُ يُطْلِقُونَ الشَّبَّابَ ،
وَحَتَّى بالقُوَّةِ ، من العِزْلَةِ ، ويضعون حَيَاتِهِ وَأفكاره أمام
مِرْأَى العَالِمِ ، والعَالِمَ أمام مِرْآه ، مَقْدَمِينَ المِثَالَ الفِعْلِيَّ
عَلَى التَّوْجِيهِ بَدَلَ التَّحْرِيفِ .

LXXXVI

السَّبِيلُ الأَضْمَنُ لِتَخْفِي عَنِ الأَخْرِينِ حُدُودَ
عِلْمِكَ ، هُوَ أَلَّا تَتَخَطَّأَهَا .

LXXXVII

من يَسَافِرُ كَثِيرًا ، يَمْلِكُ هَذِهِ الأَفْضَلِيَّةَ عَلَى
الأَخْرِينِ ، أَنْ مَوَاضِيْعَ ذَاكِرْتِهِ سُرْعَانَ مَا تَصْبِحُ بَعِيدَةً ،
ذَاكَ أَنَّهَا تَتَوَشَّحُ بِذَلِكَ الغَمُوضِ وتلك الشُّعْرِيَّةِ ، اللَّذِينَ
لَا يُعْطِيهِمَا لِلأَخْرِينِ غَيْرُ الزَّمَنِ . من لَمْ يَسَافِرِ مَطْلَقًا ،
يَمْلِكُ هَذِهِ السَّيِّئَةَ ، أَنْ جَمِيعَ مَوَاضِيْعِ ذَاكِرْتِهِ حَاضِرَةٌ فِي
مَكَانٍ مَا حَوْلَهُ ، ذَاكَ أَنَّهَا حَاضِرَةٌ الأَمَاكِنِ الَّتِي كُلُّ ذِكْرِيٍّ
من ذِكْرِيَاتِهِ تُحِيلُهُ إِلَيْهَا .

LXXXVIII

ليس أمراً نادر الحدوث أن الشَّخص الفارغ،
المليءَ بأفكار تدور كلها حول نفسه، بدل أن يكون
أنانياً وجافاً الرُّوح، كما يحدث في الأرجح، تراه رقيقاً
طيباً رقيقاً صالحاً، بل وصديقاً خدوماً جداً. ولأنَّه يعتقد
بأنَّه محبوبٌ من الجميع، فإنَّه لا يملك غير أن يحبَّ
مُحبِّيه، ويساعدهم أنَّى استطاع، لأنَّه يحسب أنَّهم
مؤمنون بأنَّ القدرَ قد اختاره لأجل أن يخلصهم. يحدث
بطيبة خاطر، مؤمناً بأنَّ العالم مليءٌ باسمه، ويتصرف
بإنسانيةٍ مادحاً في أعماقه هذه النبالة، وهذه المعرفة في
تسخير عظمته الشَّخصية لخدمة الضُّعفاء. وقد لاحظتُ
أنَّ هذا الانطباع الذي يكبر في نفسه، يكبرُ بالفطرة. وفي
النَّهاية فإنَّ هذه الثُّقة التي لديه عن أهميته الخاصَّة، وعن
رأي الجنس البشريِّ الذي يؤكِّد عليها، تنزع من سلوكه
كلَّ مظاهر القسوة، لأنَّه ما من شخصٍ قد يكون راضياً
بنفسه وبالآخرين وتراه في الوقت نفسه فظَّ المشاعر؛
كما تولدُ هذه الثُّقة فيه تلك السَّكينة، التي تجعله يبدو
أحياناً بمنظر الأشخاص المتَّضعين.

LXXXIX

القليلُ الألفُ بالبشر، نادراً ما يكون كارهاً لهم.
الكارهون الحقيقيون لا يوجدون في المعتزل، بل في
العالم: ذاك أنَّ الواقعَ العمليَّ للحياة، وليس للفلسفة،
هو ما يحملُ على كراهية البشر. ولو أنَّ واحداً من
الكارهين للبشريَّة تعزَّل بنفسه عن النَّاس، لخسرَ بتلك
العزلةِ تلكَ الكراهيةَ.

XC

عرفتُ واحداً من الأطفال، كانَ كلَّما عُرضَ في
أمرٍ من قِبَل والدته، يقول: أه، فهمتُ، أمِّي سيئة. ليسَ
عبرَ منطقي آخرَ يناقشُ أغلب النَّاسِ بعضهم بعضاً، كما
لو أنَّه ما منَ طريقةٍ أبسطَ من هذه يجدونها ليعبروا عن
رأيهم.

XCI

إذا كنتَ في وارد تقديم نفسك إلى أحدهم،
وأردت أن تزكيتك الذاتية قد يكون لها وقعٌ، فلتدع
جانباً محاسنك الأكثر واقعيةً وجوهريَّةً، ولتُخبرَ بتلك
الأكثر ظاهريَّةً ولُصوقاً بالحظِّ. فإذا كنتَ عظيماً ومقتدراً
بين النَّاس، لتقلُ بأنك عظيمٌ ومقتدر. إذا كنتَ ثرياً،

لَتَقُلْ بِأَنَّكَ ثَرِيٌّ. وَإِذَا كُنْتَ نَبِيلاً فَحَسْبُ، لَتَقُلْ نَبِيلاً: وَلَا
تَقُلْ شَهْمًا وَلَا عَفِيفًا وَلَا فَاضِلًا وَلَا مُحِبًّا وَلَا أَيَّ شَيْءٍ
مِمَّا تَلِي مِنْ صِفَاتِ حَقِيقَةٍ وَرَفِيعَةٍ لَوْ أَحْبَبْتَ الْإِضَافَةَ. أَمَّا
إِذَا كُنْتَ أَدِيبًا مَشْهُورًا وَيُحْتَفَى بِشَخْصِكَ فِي أَحَدِ
الْأَمْكَنَةِ فَلَا تَقُلْ بِأَنَّكَ مَثَقَفٌ وَلَا عَمِيقٌ وَلَا عَبْقَرِيٌّ وَلَا
عَظِيمٌ وَلَكِنْ قُلْ: مَشْهُورٌ؛ لِأَنَّهُ، وَكَمَا قُلْتَ فِي مَكَانٍ
آخَرَ، الْحِظُّ مُحْظُوظٌ فِي الْعَالَمِ، وَلَيْسَ الْقِيَمَةُ.

XCH

يقول جان جاك روسو إنَّ اللُّطْفَ الْحَقِيقِيَّ يَكْمُنُ
فِي الظُّهُورِ بِمَظْهَرِ التَّسَامُحِ. هَذَا اللُّطْفُ قَدْ يَقِيكَ مِنْ
الْكَرَاهِيَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَجِيءُ لَكَ بِالْحُبِّ، سِوَى رَبِّمَا ذَاكَ
الْحُبِّ الضَّئِيلُ مِنْ أَوْلِيَّكَ الَّذِينَ يَكُونُ تَسَامُحُكَ مَعَهُمْ
اسْتِحْثَاتٌ لَهُمْ عَلَى الرَّدِّ بِالْمِثْلِ. مَنْ يَرِيدُ، وَبِحَسَبِ
مُؤَاتَاةِ الظُّرُوفِ، أَنْ يَجْعَلَ مِنَ النَّاسِ أَصْدِقَاءً، بَلْ
وَعَشَاقًا لَهُ، فَمَا عَلَيْهِ سِوَى أَنْ يُثَبَّتَ لَهُمُ التَّقْدِيرُ. فَمِثْلَمَا
التَّحْقِيرُ مُؤَذٍ وَمَكْرُوهٌ أَكْثَرُ مِنَ الْكَرَاهِيَةِ، فَكَذَلِكَ التَّقْدِيرُ
مَرْغُوبٌ وَمُحْبُوبٌ أَكْثَرُ مِنَ التَّسَامُحِ. وَعَمُومًا، فَعِنْدَ
النَّاسِ اِهْتِمَامٌ أَكْبَرُ، أَوْ بِالْأَحْرَى رَغْبَةٌ أَكْبَرُ، فِي أَنْ

يكونوا مُقدِّرين من أن يكونوا محبوبين. ودائماً تقريباً ما يلقى إثباتُ التَّقدير، سواء كان صادقاً أو زائفاً (في جميع الحالات يصدِّقه من يتلقَّاه)، عرفانا بالجميل: وكثُر ممَّن لا يحرِّكون أصبعاً في خدمة من يحبُّهم حباً حقيقياً، تراهم يقذفون بأنفسهم إلى النَّار لأجل من قد يومئ بالتقدير لهم. إثباتُ التَّقدير هذا جدُّ فعَّال في مُصالحة المُساء إليهم، فكما يبدو، الطَّبيعة لا تسمح لنا بكراهية شخصٍ يقول إنَّه يقدرنا؛ فيما ليس فقط من الممكن، بل هذا ما نراه في أغلب الأحيان، يكره الإنسان وينفر ممَّن يحبُّه، بل وممَّن يأتيه بالنِّفع. فإذا كان فنُّ أسرِّ القلوب كامنٌ في جعلِ الآخرين يغادروننا وهم أكثر سعادةً ممَّا جاؤونا، من الجلي أنَّ إيماءات التَّقدير ستكون أكثر فعاليةً في ذلك من إيماءات التَّسامح. وعندما يكون التَّقدير أقلَّ استحقاقاً للشَّخص، يكون إظهاره له أكثر تأثيراً فيه. ومثل هؤلاء المعتادين على هذا النوع من اللُّطف مع الآخرين، هم لا يُلاطفون بدورهم بأقل من ذلك، بل قد يصل الأمرُ حدَّ المُغازلة، ويكون الحال مثل حال الذُّباب المجتمع على العسل، إذ تراهم يتنافسون على تقدير النَّاس طلباً للذَّة أن يروا أنفسهم مُقدِّرين. وغالباً ما يبالغ هؤلاء في المديح: لأنَّه بالمديح

الذي يمنحونه لكل من حولهم تتولد سعادتهم من
المديح الذي يمنحه كل من حولهم لهم، البعض امتناناً،
والبعض إرضاءً للغرور بأننا ننال المدح والتقدير ممن
هم ممدوحون وقديرون. هكذا، ومن دون إدراك،
وربما بعكس إرادتهم، لا يفعل الناس، عندما يغمرون
بالتبجيل والإطراء مثل هؤلاء، غير أنهم يرفعونهم في
المجتمع أعلى من أنفسهم، فيما يستمرُّون هم في التفاضل
فوق الدرجات الأدنى.

XCIII

أكثر، أقصد حوالي جميع الناس الذين يعتقدون
بأنهم مقدرُّون في المجتمع، سواء من أنفسهم أو من
الآخرين، هم في الحقيقة لا يملكون من التقدير غير ذلك
المحصور بصُحبة ما، أو بطبقة ما، أو بفئة ما من
الأشخاص، التي ينتمون إليها ويعيشون ضمن نطاقها.
رجل الأدب، الذي يعتقد بأنه مشهور ومُحترم في
العالم، يجد نفسه إما مهجوراً من طرف، أو مهزوءاً به
في كل مرة قد يقع فيها في صحبة أناس فارغين، والذين
يشكلون ثلاثة أرباع العالم. الشاب الأنيق، الذي يُحتفى

به بين النساء وبين أقرانه، يبقى وضعه مهملًا وغائماً في مجتمع رجال الأعمال. المستشار الذي يغمره زملاؤه وتابعيه بكل التّشريفات المتخيّلة، غالباً ما يُقابل من الناسِ بابتسامة أو بالغروب عن طريقه. أخلصُ إلى أنّ على الإنسان ألاّ يصبو إلى تحصيل التّقدير من المجتمع بأكمله، ولكن فقط من عددٍ قليلٍ من الأشخاص. أمّا من البقيّة، فعليه أن يرضى بأن يكون مرّةً مجهولاً تماماً، ومرّةً مُستخفّاً به، ذلك أنّه ما من احتمالٍ آخر.

XCIV

من لم يغادر أبداً الأمكنة الصّغيرة، حيثُ تسودُ المطامحُ المُبتدلةُ والجشعُ العامّيُّ، سويّةً مع الكراهية المكثّفة لكلِّ واحدٍ ضدّ الآخر، يبدو له الحديث عن النّقائص الكبرى مثل خُرافة. هكذا تبدو في المجتمع المحامدُ الجوهريّةُ والثّابتةُ. وبالأخصّ الصّدّاقة، تظنُّها شيئاً ينتسبُ إلى القصائدِ والحكايا، لا إلى الحياة. محضُ تضليلٍ. دعك من الأساطير، الأصدقاء الرّائعون والمخلصون موجودون حقّاً في العالم، وليسوا بقلٍ. العونُ الذي تنتظره وترجوه من

هؤلاء الأصدقاء، أعني الذين هم هبةٌ من العالم، يكون
إمّا كلمةً، هي غالباً ما تكون كافية وشفافية، وإمّا فعلاً:
مالٌ مثلاً، وهذا فيما ندر. والإنسانُ الحكيمُ والمُتَبَصِّرُ لا
يسألُ الفعلَ. مهما يكن، فثمةٌ مَنْ، وبكلِّ طيبِ خاطرٍ،
ولأجلِ دُخيلٍ ما، يخاطرُ بحياته التي ثمةٌ على الطرفِ
المقابلِ مَنْ، لن أقول «يَهَبُ»، ولكن «يَضَعُ» حياته وقاءً
لها.

XCV

ليسَ الإنسانُ بلا عُدْرِ في هذا: لأنَّه نادرٌ ذاك الذي
يملكُ حقاً أكثر ممَّا يحتاج، وهذا أنَّ الحاجةَ تجيءُ أصلاً
من الوَلَعِ، والرَّغْبَةِ تتناسبُ أساساً مع الثَّرْوَةِ، وكثيراً ما
تتجاوزها. وهؤلاء القلُّ الذين يكتزون دون أن يُنفقوا،
لديهم هذه الحاجةُ إلى الكُنْزِ. إمَّا محضُ نزعةٍ، أو
لضروراتٍ ومخاوفٍ مستقبليةٍ. وليس من الواردِ أن تكون
هذه الحاجةُ أو تلك تخيليةً، لأنَّها قليلةٌ جداً في الحياةِ
الأشياء التي لا تكمن، جُلُّها أو مجملُها، في الخيال.

XCVI

الرَّجُلُ الصَّالِحُ، مع تقدُّم السنين، يصيرُ بسهولةٍ
عديم التأثير بالمديح والتَّشريف، لكن لا يفقدُ أبداً، كما
أعتقد، تأثيره بالتَّحقير والتَّوبيخ. أكثر من ذلك، فالإطراء
والتَّقدير اللذان قد يأتيانه من أشخاصٍ في مُنتهى الرِّفعة
ليسا كفيلين بالتَّعويض عن الألم الذي تسببه له أيَّ إيماءةٍ
أو إشارةٍ إهمالٍ قد تأتيه من شخصٍ في مُنتهى الضَّعة.
لعلَّ العكس يحصلُ مع الطَّالِح، فبأنه معتادٌ على التَّحقير
وليس معتاداً على التَّقدير، يصيرُ عديم التأثير بالأوَّل،
سريع التأثير بالثَّاني، ما لم يمسه بالمصادفة مَسٌّ من
الحكمة.

XCVII

لهذا سِمةُ التَّنَاقُضِ الظَّاهِرِيَّ، لكن مع
المعرفة بالحياة يُكتشفُ بأنه حقيقيٌّ وجوهريٌّ، أن
أولئك الأشخاص الذين يسميهم الفرنسيون بالأصليين
[المبتكرين]، هم ليسوا فقط غير قلة في الحياة، بل هم
شائعون إلى درجةٍ أقول معها إنَّ الشيء الأكثر ندرةً في
المجتمع هو أن تصادفَ شخصاً ليس، كما يسمُّون،
أصلياً. ما أتحدَّث عنه هو تلك الفروق الصَّغيرة بين

إنسانٍ وآخَرَ: أتحدّثُ عن الطَّبيعة والطَّبع اللذَّين يعيَّنان شخصيَّةَ المرءِ، ويبدوان للآخرين غريبين وشاذَّين ومُضحكين: قليلةٌ هي المرَّات التي، بعدَ فترةٍ طويلةٍ من عِشرتكَ مع شخصٍ مهما يكن متحضراً، لا يحدثُ فيها أن تكتشف في طباعه أكثرَ من غرابةٍ أو سخافةٍ أو خروجٍ عن المألوف، وغيرها من الأشياء التي تثيرُ اندهاشك.

هذا اكتشافٌ تبلغه في وقتٍ أبكرَ مع الآخرين فيما مع الفرنسيين، وربَّما بأبكرَ من ذلك مع الأشخاص النَّاضجين والمسنين ممَّا مع الشبَّان، لأنَّ هؤلاء كثيراً ما يضعون طموحهم في إثبات أنفسهم للآخرين، وإذا كانوا فوق ذلك جيِّدي التَّربية فإنَّهم يتملَّكون نزواتهم بقوةٍ أكبر. ولكن، مهما يكن، أبكرَ أو أرجأ، في النَّهاية سوف تكتشف هذه الحقيقة في جميع أولئك الذين تعاشرهم. حقاً، الطَّبيعة متنوِّعة، وفي غاية المستحيل على الحضارة، هذه التي تطمحُ إلى التَّبسيط والتَّمائل، أن تنتصر في الآخرِ على الطَّبيعة.

XCVIII

شبيهةً بالملاحظة السابقة التَّالِيَةُ، أَنَّ كُلَّ مَنْ سَبَقَ
لَهُ وَأَنْ خَالَطَ النَّاسَ أَوْ كَانَ لَهُ مَعَهُمْ شَأْنٌ، لَوْ أَنَّه أَعْمَلَ
ذَهَنَهُ قَلِيلاً، لَانْتَبَهَ إِلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَرَّاتِ
مُتَفَرِّجاً، أَوْ رَبَّماً، لِنَقْلِ، جِزْءاً مِنْ مَشْهَدٍ وَاقِعِيٍّ لَا
يَخْتَلِفُ فِي شَيْءٍ عَنِ تِلْكَ الَّتِي تُشَاهَدُ فِي الْمَسَارِحِ، أَوْ
تُقْرَأُ فِي كُتُبِ الْكُومِيدِيَّاتِ الْهَزْلِيَّةِ أَوْ فِي الرُّوَايَاتِ،
وَنَحْسِبُهَا نَحْنُ مِنْ تَخَايِيلِ مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ لِتَلْبُسِهَا لُبْسَ
الْفَنِّ. الشَّيْءُ نَفْسُهُ لَا يَعْنِي شَيْئاً، غَيْرَ أَنَّ السُّوءَ،
وَالْحِمَاقَةَ، وَالنَّوَاقِصَ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ وَلَوْنٍ، وَالطَّبِيعَةَ
وَالطَّبَعَ السَّخِيفِينَ لِلنَّاسِ، هِيَ اعْتِيَادِيَّةٌ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِنْ أَنْ
نَعْتَقِدَ بِمَعْقُولِيَّةِ اسْتِبْدَالِ الْعَادِيِّ بِتِلْكَ الْإِشَارَاتِ الَّتِي
تُحِيلُهَا افْتِرَاضَاتُنَا إِلَى التَّطَرُّفِ.

XCIX

لَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ سَخِيفاً إِلَّا عِنْدَمَا يَرِيدُ أَنْ يَبْدُو أَوْ
يَكُونُ غَيْرَ مَا هُوَ كَائِنٌ. الْفَقِيرُ، الْجَاهِلُ، الْقُرُوبِيُّ،
الْمَرِيضُ، الْعَجُوزُ، هُمْ لَيْسُوا أَبَداً بِسَخِيفِينَ عِنْدَمَا

يكونون راضين بكونهم ما هم كائنه ، وقانعين بالبقاء داخل الحدود التي شاءتها الطبيعة لهم ؛ ولكن يا للخفة ، عندما يريد العجوز أن يبدو شاباً ، المريض مُصِحّاً ، الفقير غنياً ، الساذجُ جامعياً ، والقروي مُتمدناً . العيوب الجسديةُ نفسُها ، ومهما تكن قاسية ، لا تُفسدُ رقةً ابتسامه قد تعبر ، فيما لو أن الإنسان لم يجهد على إخفاء عيوبه ، أي فيما لو أنه لم يُرد أن يبدو كأنه لا يملكها ، ومثله القول : فيما لو أنه لم يُرد أن يكون مختلفاً عما هو كائنه . من يتبصر جيداً ، يدرك أن عيوبنا وآلامنا ليست هي المثيرة للسخرية ، ولكن الجهد الذي نبذله لإخفائها ، وإرادتنا أن نتصرف كما لو أنها ليست لنا .

أولئك الذين لأجل أن يكونوا محبوبين يتحلون صفةً معنويةً مختلفة عن حقيقتهم ، يُخطؤون خطأً كبيراً . التصنع الذي بعد فترة وجيزة تضعف القدرة على المداومة عليه ، يصيرُ جلياً ، ومُعارضة الصفة الزائفة للحقيقية تتقهقر أمام التكشف والتشفُّف المستمر لهذه ، فيمسي الشخص مكروهاً ملوماً محسوراً بأنه لم يعرض حقيقته كما هي بجلاءٍ ومنذ البداية . أية صفة مهما بلغت من البؤس ، يكمنُ فيها جانبٌ جميل ، ولأنه جانبٌ

جوهريٌّ وصادقٌ، فإنَّه عندما لا يُحجَّب، يكونُ جديراً
بالحبِّ أكثر من أيِّ جمالٍ آخر زائف.

وعموماً، إرادتنا أن نكون ما ليس نحنُ، تُهدِّم كلَّ
شيءٍ في العالم: وليس لأيِّ سببٍ آخر غير هذا يصيرون
غيرَ محتملين بعضُ الأشخاص الذين كانوا ليعشَقوا فقط
لو أنَّهم رضوا بكيوننتهم. ليس فقط أشخاص، ولكن
فئات، بل وشعوب كاملة: وأنا أعرف العديد من مدن
المقاطعات المزدهرة والمثقفة، والتي كان لِيُسْتَحَبَّ
كثيراً العيشُ فيها، لولا أنَّها تقليدٌ جدُّ بشعٍ للعواصم،
أي لولا إرادتها أن تكونَ غيرَ ما هي كائنةً عليه، وقبلَ
كلِّ شيءٍ أن تكونَ مدنَ عواصم لا مدنَ مقاطعات.

C

بالعودة إلى العيوب والخسارات التي قد تلحق
بأحدنا، لا أنكر أن العالم في كثيرٍ من الأحيان ليس مثل
أولئك القضاة الذين يُحرِّم عليهم، بحسب القانون، أن
يدينوا الجاني، حتَّى ولو كانوا متأكِّدين من جنايته، ما
لَمْ يصدُر عنه هو نفسه اعترافٌ شفاهيٌّ بالجريمة.
وطبعاً، ليس لهذا السبب هو إخفاء العيوب الشخصية،

بإجهادٍ ظاهريٍّ، مبعثاً للسُّخرية؛ إنني لأطري على أولئك الذين يأتي اعترافهم عفويًّا، وأقلُّ من ذلك على مَنْ قد يقول أكثر من الحقيقة بقصد أن يبقى نفسه، تعاطفاً مع أولئك، في مكانٍ ما أدنى من الآخرين. لكنَّ الأمر ليس بطبيعة الحال مدعاةً لكي يدين الإنسان نفسه بذلك الحكم النهائي، ذاك أنَّه، ما دامت رأسه مرفوعة، فإنَّ العالم لن يمنحه الحكمَ إيَّاه أبداً. في قلب هذا الاضطراع لكلِّ واحدٍ ضدَّ الجميع، وللجميع ضدَّ كلِّ واحدٍ، هنا، لو أردنا تسمية الأشياء بمسمياتها، تكمنُ الحياة المجتمعيَّة؛ وفي هذا الكفاح ضدَّ الشريك في سبيل البقاء على قدمٍ ثابتة، يُخطئُ كثيراً من قد يخضع، وكذلك من قد ينحني، بل ومن قد يحني هامته ولو تلقائياً: لأنَّه ومن دون أدنى شكٍّ (باستثناء لو أنَّه كان يتظاهر بذلك، كحيلةٍ قتاليَّةٍ مثلاً) سرعان ما سوف يؤخذ من ظهره ويُطرح أرضاً، بلا أيَّة رأفةٍ أو رحمةٍ من العالم. هذا الخطأ يقترفه الشُّبَّان دائماً تقريباً، وغالباً عندما يكونون لطيفي الطَّبَّاع: أعني اعترافهم بين فينةٍ وأخرى، وبلا ضرورةٍ وخارج السِّياق، بعيوبهم ونواقصهم، مُساقين بنزعة الصِّراحة التي هي سمةٌ أساسيَّةٌ لذلك

العُمر، وبسببها يكرهون التّظاهر والادّعاء، مأخوذين
بسعادة الاعتراف، حتّى ضدّ أنفسهم، بالحقّقيّ. جزئياً
لأنّ ما هم عليه من سخاء، يجعلهم يعتقدون بأنّهم
سوف يُمنّحون، مقابل ذلك، التّسامح والغفران من
العالم على نواقصهم. وتبتعد كثيراً عن حقيقة الإنسان
تلك الحقبة الذهبية من الحياة، هذا أنّهم يرفعون
الحجاب عن جوهر الحزن، ظناً منهم أنّ الحزن يجمّلهم
ويكسبهم النُّفوس. ولا شيء، لنقل الحقيقة، يصيبُ
المنطق أفضل من هذا الظنّ، ووحدها فقط المعرفة
الطّويلة والمتواصلة بالذّات تحملُ صاحبها اللطيف
النفس على الاعتقاد بأنّ العالم يغفرُ بسهولة كلّ ما قد
يعيبه. إنّ السرّ هو ليس الحزن في حدّ ذاته، غير أنّ
الحظّ محظوظ، ولكن، ولا في هذا كذلك يكمنُ السرّ؛
هو يكمنُ دائماً هنا، في رفع الحجاب عن الحزن كلّما
أمكن، وحتّى ضدّ الحقّقيّ نفسه. في أنّ الاعتراف
بمثالب الذّات لا يولّد رحمةً بل لذة، لا يُحزن بل
يُفرح، لا الأعداء فحسب بل كلّ من قد يسمعه، ذاك
أنّه أشبه بوثيقة على دونية الأنا وتفوق الآخر. لكن بما
أنّ الإنسان المطروح أرضاً لا يمكنه سوى أن يتكل على

قواه، حيث لا هو قادرٌ على مفارقة نفسه، ولا حتّى على الرجوع خطوةً واحدة بإرادته، تراه يستमितٌ في المقاومة، ويقا تل بما بقي من قواه المُستنفدة لأجل حفظِ أو نيلِ، وحتّى بالرغم من الحظّ، ذلك الشيء الذي لن يؤتاه لا من سخاء النَّدِّ ولا من سخاء الإنسانِة جمعاء. بالنسبة لي، أعتقد بأنّه ليس على المرء أن يتألّم إذا ما سُمّي، في محضِرِ منه، حزيناً أو شقيّاً: فهذه الصفات كانت في جميع اللغات تقريباً، ولا زالت، مرادفاتٍ لمختلف معاني السُّوء، وربّما لمحض خرافاتٍ قديمة قد يكون الحزنُ معنىً للشّرِّ، ولكن من المؤكّد، وفي جميع اللغات، أنّه يعرفُ، وسوف يعرفُ دائماً، بينه وبين نفسه بأنّه جائرٌ كلُّ مَنْ يُحيلُ تلك الصفات إلى تلك المعاني، ولأيّ غاية كانت، هذا أنّه لا يفعل ذلك، أصلاً، إلّا لشعوره بأنّه يرفعُ بهذا نفسه ويخفّضُ الآخرين، ذاتُ الشيء الذي يشعرُ به من يسمع.

CI

بالاعتراف بمساوىِّ الذات، حتّى الجليّة منها، يدمّرُ الإنسانُ أيضاً التّقدير الذي يُكُنّه له الجميع بمن فيهم أقرب أعزّائه: من الضّروري جدّاً أن يتملّك المرءُ

نفسه بذراعٍ قويّة، وأن يُري، في جميع الحالات،
وبرغم من كلِّ المِحْن، تقديراً ثابتاً وواثقاً لذاته، مقدّماً
للآخرين مثلاً يمثّلونه في تقديرهم له، محتويّاً إيّاهم
بذلك داخلَ سُلْطانه. لأنّه إن لم يبدأ تقديرُ الإنسانِ من
نفسه، فمن الصَّعب أن يبدأ من أيِّ مكانٍ آخر: وإذا لم
يملك في أعماقه أساساً راسخاً، من الصَّعب أن يثبتَ
على قدميه. حقّاً، مجتمع الإنسان كمثل السائل، كلُّ
جُزئيةٍ أو كُريّةٍ تُضغَطُ بقوةٍ تلك اللاتي بقربها حفايفها
ووراءها وأمامها، وبقوّة أقلِّ اللاتي هنَّ بعيداتٍ عنها،
وتُضغَطُ هي مثل ذلكِ منهنَّ، فإذا ما في ناحيةٍ ما
تخلخل الدَّفْع والمقاومة، لن تمرَّ وهلةٌ إلا وتري الكتلة
جميعها تجري مندفعةً بسرعةٍ إلى هناك. ذاك المكانُ
الآن، مليءٌ بكُريّاتٍ جديدة.

CH

سنوات النّشأة الأولى هي، في ذاكرة كلِّ واحدٍ،
الأوقات الأسطوريّة في حياته، مثلما، في ذاكرة الأمم،
الأوقات الأسطوريّة هي سنواتُ نشأتها الأولى.

CIII

المديح الذي يُعطى لنا، يجعلُ الأشياءَ والملكات
ثمينةً في حكمنا بعدما كانت صغيرةً ومُزدرأةً. هكذا
الأمرُ، في كلِّ مرَّةٍ تُمدحُ فينا الأشياءَ والملكات من
جنسِ هذه.

CIV

الثقافةُ التي يتلقاها، بالأخصُّ في إيطاليا أولئك
المتثقفون (وهم ليسوا كثيراً للحقيقة)، هي خيانةٌ شكليةٌ
مُنظمةٌ من قبل الضَّعف ضدَّ القوَّة، والشيخوخة ضدَّ
الشَّبَاب. يأتي الشُّيوخ ليقولوا للشَّبَاب: اقتلعوا متعَ الذات
من نفوسِكُم، لأنَّها جميعاً خطيرةٌ ومناقضةٌ للفضيلة،
ولأنَّنا نحنُ قد أخذنا منها قدرًا أكثر مما استطعنا، ولو
أنَّه كان في مُستطاعنا الآن، لأخذنا المزيد، ولكن ما
عُدنا نُجدي، بسبب السنين. لا تعبأوا بالحياة اليوم،
كونوا مُطيعين فحسب، تألَّموا، وجاهدوا بكلِّ ما
تعرفون في سبيل الحياة المقبلة عندما ينقضي الشَّبَاب.
الحكمة والصدِّق يريدان من الشَّابِّ أن يقصي نفسه ما
أمكَّنَ عن حياة الشَّبَاب، باستثناء التَّفوقِ على الآخرين

في المُكابدة. وأما مصائرُكم وكلُّ شيءٍ آخر هامٍّ، فدعوا
التَّفكيرَ بهِ لنا، نحن الذين لا تتمُّ الأمورُ إلَّا بعونِ منَّا.
تمامُ النَّقِيضِ لهذه الأمورِ فعَلَهُ كلُّ واحدٍ منَّا في شبابهِ،
ولفَعَلَهُ من جديدٍ لو عاد الشَّبَابُ: ولكن، أنتم، عليكم
بكلِّماتنا، لا بأفْعالِنَا الماضِيَةِ، ولا بِنِيَّاتِنَا المُستَترَةِ. فقط
بذلك، صدَّقونا نحنُ الحُكَمَاءُ العارفينُ بأحوالِ
الإنسانِ، تنالون السَّعَادَةَ. أنا لا أعرف ما هو الشَّيْءُ
الذي قد يكون أكثرَ خِيَانَةً وتضليلًا، مِنَ التَّبْشِيرِ بالسَّعَادَةِ
تحت هكذا ظروف.

مصلحةُ السَّكِينَةِ العامَّةِ، العائليَّةِ، والشَّعْبِيَّةِ،
تتضادُّ مع مُتَعٍ ومُجَازفاتِ الشَّبَابِ. ولذلك فحتَّى التَّربِيَةِ
الجَيِّدَةَ، أو ما يُسَمَّى كذلك، يكمن أكثرُها في تضليلِ
التَّلَامِيذِ، لحملِهِم على تقديمِ رضا الأخرينِ على
رضاهم الذَّاتِي. لنفرض أنَّنا لا نسلِّمُ بذلك، تبقى حَقِيقَةُ
لا يمكن إنكارها، أنَّ الشُّيُوخَ ينزعون بطبيعة الحالِ،
وبالرَّغْمِ ممَّا قد تكون عليه دخيلة نفوسهم، إلى تخريبِ
ومحوِ الشَّبَابِ من حياة الإنسانِ بأكملها، هذا الذي
مشهدُهُ يشوِّشُ سكينتهم. في جميعِ العصورِ، كانت
الشُّيُوخَةُ متواطئةً على الشَّبَابِ، لأنَّه في جميعِ العصورِ

كانت نقيصة الإنسان هي ذلك الجبن في أن ندين وندمر
لدى الآخرين وفيهم ما نرغب أن يكون لدينا وفينا. ولا
يغيب عن بالك في حال من الأحوال، أنه بين المرين
الذين، ولو وجد واحد منهم فقط، يعملون لتثبيت
الفضيلة عند تلاميذهم، ثمة أكثر ممن يعملون على نزع
أكبر فضائل الحياة منهم، وهو الشباب. الملاحظ أكثر،
أنه ما من أب ولا أم، ولا مدرس آخر، يشعرون بوخز
الضمير من منح أولادهم تربية متماسسة على هكذا
أساس خبيث. وما قد يدهش أكثر هو نقيض ذلك، أنه
لم يُعتقد أبداً بأن إبطال الشباب، إذا سلمنا بحصول هذا
على الأمد الطويل وبالتعاقد مع مسببات أخرى، هو
شيء يستحق الثناء.

ثمرة هذه الثقافة الهدامة، إما أنها سوف تُجنى
لمنفعة المثقف على حساب دمار النبتة بأكملها، وهي
الحقيقة، وإما أن طلاب الثقافة، الذين يعيشون
الشيخوخة الوهمية في مرحلة الإزهار، سوف يقفزون،
فوق مرحلة الإثمار، إلى مرحلة الشيخوخة الحقيقية،
حيث لا ينالهم غير الحزن والسخرية عندما يريدون الآن
أن يعيشوا معيش الشباب. ولكن، لا هذا ولا ذاك، فكما

يحدث دائماً، الطَّبيعة تنتصر، والشُّبان يعيشون معيش
الشُّباب بالرَّغم من كلِّ وسائل التَّربية، متمرِّدين على
النَّزعة الشَّاذَّة لمربِّيهم، هؤلاء الذين لو أنَّهم حضنوا أَلَمَ
ومُتعة نِزاعاتهم الشُّبابيَّة، لكانوا استطاعوا توجيهها عبرَ
الثِّقة التي كان ليمنحها لهم هؤلاء التَّلَامِيذ، لولا أنَّها
فُقدت إلى الأبد.

CV

الدَّهَاءُ، أعني ذاك المقرون بالخِداع، غالباً ما
يُستَخدم للتَّعويض عن قُصور الخِداع نفسه، وطبعاً
للتَّفوق على نُسخه الكثيرة التي عند الآخرين.

CVI

العالمُ أمام الأشياء الجديرة بالحبِّ، عوضاً أن
يُحبَّ يضحك ويذمُّ، مثل ثعلبِ إيسوب⁽¹⁾، تلك
الأشياء التي يحسد. عاطفة حُبِّ عظيمة، مع عزاءات
آلامٍ عظيمة، هي محسودةٌ كونيّاً، ولهذا هي مذمومةٌ

(1) تؤخذ قصة الثعلب والعنب للكاتب الإغريقي إيسوب مثلاً على من
يدَّعي أنه لا يريد الشيء الذي لا يستطيع تحصيله، المترجم.

بكل الحرارة. اعتيادٌ كريمٌ، فعلٌ بطوليٌّ، كانا ليفطرا
القلوب حباً: لكنَّ الإنسان إذا أحبَّ، وبالأخصَّ من
يشبهه، يشعرُ بالمهانة؛ ولهذا، عوضَ أن يُحبَّ
يضحكُ. بل الأمرُ يذهبُ وراء ذلك، ففي الحياة العامَّة
يبدو أنَّه من الضَّروري الكدُّ في إهانة النَّبالة، بدلَ
الرُّعونة: ذاك أنَّ الرُّعونة مُلك الجميع، لذا هي على
الأقلِّ مغفورٌ لها؛ النَّبالة مُضدودُ العادة، وتبدو كما لو
كانت افتراضيةً، أو كما لو أنَّها تسألُ الإطراء من نفسها.
إطراءٌ لا يحبُّ النَّاسُ، وأولَّهم أصحابُ المعرفة، أن
يعطوه بصدقٍ ونبالة.

CVII

سذاجاتٌ كثيرة تُقال في مجلسٍ ما فقط للرَّغبة في
الحديث. بيدَ أنَّ الشَّابَّ الذي يحمل بعض التَّقدير
لنفسه، عندما يبدأ بالدُّخول إلى العالم، يُخطئُ بسهولةٍ
من منظورٍ آخر، وهو: أنَّه أثناء الحديث ينتظرُ أن يردَّ
على أذهان الآخرين أن يقولوا عنه شيئاً غير عاديٍّ يتعلَّق
بالجمال أو الأهمية. هكذا، فيما هو ينتظر، يحدثُ الأ
يتكلَّم مُطلقاً. المحادثة الأكثر شعريَّةً في العالم، والأكثر
روحانيَّةً، تتألَّفُ هي الأخرى في جزئها الأكبر من

كلماتٍ وأقوالٍ تافهة ومُقتطعة، يُستنجدُ بها لأجلِ تمريرِ الوقتِ. ومن الضروري أن يخلص كلُّ واحدٍ إلى قولِ الأشياءِ الأكثرِ شيوعاً، لكي لا يقول تلك الأقلَّ شيوعاً سوى بضع مرَّاتٍ فحسب.

CVIII

المكابدة الكبرى للإنسان طالما هو لم ينضج، هي لأجلِ أن يبدو بتمام النضج، وما أن ينال ذلك، يكابدُ لأجلِ أن يبدو غير ناضج. عندما بلغ أوليفر سميث، مؤلف رواية «قسيس ويكفيلد»، سنَّ الأربعين، أزال من عنوانه نهائياً لقب «دكتور»؛ لقد غدا منفراً في ذلك الوقت هذا الاستعراض الثقيل، الذي كان مُحِبّاً في السنوات الأولى.

CIX

الإنسان هو في أغلب الأحيان سييءٌ عندما يحتاج. لو أنه يتصرف باستقامة، يمكن أن نحكم بأنَّ السوءَ ليس ضرورياً له. وقد رأيتُ أناساً من طبيعةٍ جدُّ لطيفةٍ

وصادقة يقترفون فعلاً في غاية الشُّنعة، لأجل أن يتجنبوا
ضراً لا يُجتنَبُ بغير ذلك.

CX

حقاً، من المدهش رؤية أن حوالي جميع الرجال
من ذوي المنزلة الرفيعة، يتحلون بصفات بسيطة، وأن
حوالي جميع الصفات البسيطة تُؤخذ كإحالات إلى
المنزلة الوضيعة.

CXI

اللوز بالصمت أثناء المحادثة، هو شيء جميل^{٢٩}
ومحبب عندما تكتشف أن الشخص الصامت يملك^{٣٠}،
عندما يُسأل، الجرأة والأسلوب في الكلام.

فلسفة الألم والغضب || تعليق

لربّما لاحت النّعمة جافة لاذعة، غير أنّ الأفكار
تشفّ وتشفّ عن الألم الذي صاحَب التّأمّل المرير
لليوباردي.

عينُ الرَّأسِ مسبرٌ ينظرُ غورَ ذاته-

عينُ الشّاعرِ المفكّرِ، لعلّها بلغت سرّ الرؤيا
الأخيرة، المُحجّبَ بلا حجاب، والمُعرّي بلا تكشيف،

فيما وراءَ تخوم المعرفة واليأس؛

أم أنّ العينَ وهمٌ لا تعين، والألمَ هو العينُ
والرّأسُ والمسبرُ؟

كلاهما، الشّكلُ والمضمون، المبني والمعنى،
يتعالقان في رحم المصادّة التي بين الذاتيّ والموضوعيّ،

بين مرارة العاطفة ومُصَابرة المنطق. هكذا، يضيفو فضاءً
بعض الأفكار بصفاءٍ قَبْرِيٍّ خَتَمَهُ القبول العميق للواقع،
فيما فضاءاتُ الأخرى تتحشَّدُ بغيومٍ منقبضةٍ مُرسَلَةٌ من
الرَّثَّةِ الحَيَّةِ للألمِ الغاضب. لكن، ثمَّ فضاءٌ واحدٌ تتوحدُ
داخله كلُّ الفضاءات؛ فضاءُ اليقين بطبيعة الإنسان
بتشويَّتها، الطَّبيعة الطَّابِعة، والطَّبيعة المطبوعة؛ يقينٌ
أشبه ما يكون بحُكْمِ نبوئيٍّ قاسٍ، لكنَّه يتطايِفُ كذلك
بطيفٍ من الحسدِ قبالة كلِّ من عرف سرَّ المعيش، وأتقنَ
الفنَّ الجمعيَّ للحياة.

مع هذا، أحبُّ ليوباردي، وبعُمقٍ، الحياةَ
والإنسان: «لطالما رفضت التَّصديق بحقيقة الأشياء التي
سوف أقولها هنا في الأسفل، ذاكَ أَنَّهُ... لم يكن عندي،
مطلقاً، ميلٌ إلى كره الإنسان، وإنَّما إلى محبَّته»، بهذه
الكلمات يصوغُ مستهلَّ واحدةٍ من أفكاره. بيدَ أَنَّهُ، مثل
الكثيرين الذين أُحبُّوا بأكثر ممَّا ينبغي، لم يستطع الفوز
بِما / من أحبَّ.

اعتزالُ الحياة، الانفصال، التَّطَلُّق، الانسار،
الكَرْبُ الكونيُّ، الانعصافُ من داخل، الانخطفُ إلى
خارج، الكَدْرُ المولَّدُ الثَّاقِبُ الكاشِفُ، هي ثمرة

الضرورة لا ثمرة الرغبة؛ في المشهدية الدائرة على مسرح الوجود، لم يجد ليوباردي لنفسه دوراً.

وهذا التوثر في النص، توثر في كل مكان، وذاك التشبع الذي يفصح أكثر مما يعمي، ويلغز أكثر مما يكشف، وكل ذلك الاستحواذ الذي لا يخلص ولا يستكين، هي أشياء شفرت الأسلوب، وجعلته يبدو مستقيلاً عن البساطة والوحدة.

غير أن النواة الأصل لمضمون الكثير من الأفكار هي ذاتها في جميع ما كتب ليوباردي. السأم من التبسيط والرتابة والتكرار، ومن الفراغ المتخلل في الوجود، تراجع الوهم وسقوط التخيل في رؤية الحياة والإنسان، الانتصار للسحر الهش والخائب للشباب، خوف الشيخوخة ووحشتها، حيث يضاف تدهور الجسد إلى جفاف الروح، البعد التآكلي للزمن، الإقصاء والرد بين الماضي والحاضر، وجبروت الذكرة؛ القوة الطاغية للشر وللذاتية، سيادة الانحلال على الاستقامة في الحياة المجتمعية، الطلاق الذي بين النظرية والتطبيق فيما يخص المبادئ الأخلاقية، الحكم القاسي على الجماعة والمجتمع، نقد ثقافة ذلك الوقت، العجز أمام حياة

مرئيةً كمثل مسرحٍ حيث ينتصرُ المظهرُ على الجوهر
وكل يردُّ دوره بإتقان.

تشاكلُ موزاييكيٌّ للرؤية والعاطفة، لا يعدمُ كذلك
أن يتخلَّلهُ خيطٌ من البُغض الخالص الذي يبوح بالمعاناة
الشخصية للشاعر. المرأة، كما يُصرُّ مؤلِّف الأفكار، هي
الكائن الأكثر تمثيلاً لنقيصة الإنسان. هي المجازُ الحيُّ
عن سلبية هذا العالم: «في معانٍ أخرى كثيرة، المرأة هي
مثلُ صورةٍ لما هو عليه مُجمَلُ العالم: ذلك أن الضعْفَ
هو سمةُ العدد الأعظم من الرجال، وهذا الضعْفُ، أمام
القليلين الأقوياء الفكرِ أو القلبِ أو اليد، يجعلُ تلكَ
الأكثرية تبدو مثلما تبدو عليه الأنثى أمام الذكر... مع
المرأة ومع العالم، لا شيء أبداً يُنال، ولهُوَ تعيس الحظُّ
من يقعُ في حبٍّ لا هو زائفٌ ولا فاترٌ، وكذلك من
يفضِّلُ أحلامه على نفسه. والعالمُ هو صورةٌ عن المرأة،
يتسلَّى بمن يقع في حبه برهةً، ثم يمضي عابراً فوقه»
(LXXV).

أمَّا الأفكار التي تناولت موضوعة التربية
والثَّقيف، فربَّما أجملها هي تلك التي تبدو استذكّاراً
لروسو، ولكن أيضاً لآلام الطفولة الشخصية: «القدرُ

الأعظم من الأشخاص الذين نكلّفهم مهمّة تثقيف أولادنا، نعرفُ حقَّ المعرفة أنّهم لم يُثَقَّفوا. ومع هذا، لا نشكُّ في أنّهم لن يستطيعوا إعطاء ما لم يُعطوه، وما هو، في طبيعة الحال، شيءٌ لا يُكتسب» (X).

لكنّ التناقض يبقى، وفي قلب كلِّ حكمٍ قد يبدو عديم الشفقة، تومضُ بذرةٌ طيبة؛ لا يمكن الافتراضُ بأنّها تومضُ هكذا مكرهةً. الفرضيةُ الصحيحة هي أنّ حساسية الشاعر في التقاط الهشاشة والضعف البشري قد أخذتُ الفيلسوف المفكّر إلى جهة التّصبر، وتقريباً إلى جهة الرّأفة: «... الإنسانُ بائسٌ بالضرورة، وثابت العزم على الاعتقاد بأنّه بائسٌ بالمصادفة» (XXXI).

الأفكار هي بحقُّ مضاهاةٌ مكثّفة للشذرات، نوعٌ من الاستقطار الفائق، وصياغةٌ أشدُّ تبلُّراً. الكتابان، بطبيعة الحال، شكلٌ متفرّدٌ لجدارة تأملية متفرّدة. ذلك الذي قيلَ في الشذرات مُطعماً بالاقتطافات والأمثلة، مع نعمةٍ يوميةٍ وحكايةٍ، يصيرُ هنا حكمةً منحوتةً خارجَ الزّمنِ والمُحيطِ.

تنبثُ في الأفكار، أيضاً، الثّقافة والاطّلاع

الواسعين عند ليوباردي. فهاهنا، يُطالعنا الفلاسفة القدماء من أمثال سقراط وديوجينوس، والأخلاقيون والكتّاب اللاتينيون مثل شيشرون وأوراسيوس ومارسال. كذلك، لا يغيب مؤلفو القرن السادس عشر الإيطاليون عن المشهد، مثل ماكيافلي وغويتشارديني وكاستيليونه؛ ولا مفكرو القرنين السابع عشر والثامن عشر الأوربيون، كباسكال وبوفو وروسو. جميعهم قالوا كلمات ثابتة في الفرد وتموضعاته في المجتمع. ولا نسي مفكراً استثنائياً، المسيح: «يسوع المسيح كان أوّل من أشار بإصبعه بجلاء نحو ذاك الممدّح والمعلم لجميع القيم الباطلة، بأنه قدّاح ومفتر على جميع تلك الحقّة، ذاك المعارض لكلّ عظمة أصلية وجوهريّة في الإنسان... الذي سمّاه يسوع المسيح: العالم، واسمه موجود في كلّ اللغات، إلى هذه اللحظة» (LXXXIV). فبالنسبة إلى ليوباردي، يمثل المسيح تهشّم الشعريّة بين الإنسان والعالم، التي كانت حاضرة لدى المفكرين القدماء.

لو عرّجنا قليلاً على الأحكام النّقديّة حول الأفكار، لوجدنا معظمها ينبّه إلى تناقض هذا العمل.

«... مثلما لا يُمكن في الأفكار اكتشاف وحدة فكرية،
لن يمكنكم كذلك، وهذا على الأقل ما أعتقده، رؤية
وحدة أسلوبية. ذلك أن أسلوب الأفكار يُحيلنا، من أول
قراءة، إلى تضادّ نبرتين في الكتابة، هما جليّتا
التعارض، نظراً إلى تلك الازدواجية في موقف ليوباردي
قُبالة موضوعته التي لن يُشكر عليها؛ فمن جهة ثمة تلك
النبرة المفرطة والعنيفة التي ما كانت تنبغي لليوباردي
سيّما وأنّه يتحدّث عن شرور الإنسان... ومن الجهة
الثانية، أنّه في محاولته لأن يختبر فعال وعواطف
الإنسان كما لو أنّها ظواهر طبيعية، قد تكبّد أن يعطي
لكتابته طابع الدقّة والموضوعية اللذين هما لعلوم
الفيزياء أصلاً...»، هكذا كتب ماريو فوبيني.

أمّا أتيليو موميليانو، فيقول: «إنّ أفكار ليوباردي
لا تقول على الإطلاق شيئاً عن حياته، وهي ليست
صورةً مخلصّةً لما ينبغي أن تكون عليه معرفة شاعرٍ
معتزل. هي تبقى مجرد ملحق أو خاتمة لروائعه، قطرات
بلسم وكؤوس سُمّ عَصارة تجربته المُكئبة، أو محض
تعبير عن حياة شخصية اختار هو أن يزيّفها ويفصلها عن
المحيط الذي صعبت عليه مواجهته».

لكن، تبقى الأفكار بكل تأكيد، وبعيداً عن
مقارنتها بالضرورة مع روائعه الأخرى، نصوصاً ذات
دلالة، وسواءً هي الغزاة أو بينت، هدأت أو عصفت،
تساوقت أو تناقضت، تبقى رؤية المترجم جياكومو
ليوباردي عن الإنسان والعالم صافيةً ضافيةً.

نبذة عن المترجم:

أمارجي، شاعر سوري.
ولد بمدينة اللاذقية
الواقعة على المتوسط
سنة ١٩٨٠.



درس اللغة الإيطالية
في جامعة بيروجيا

في إيطاليا.

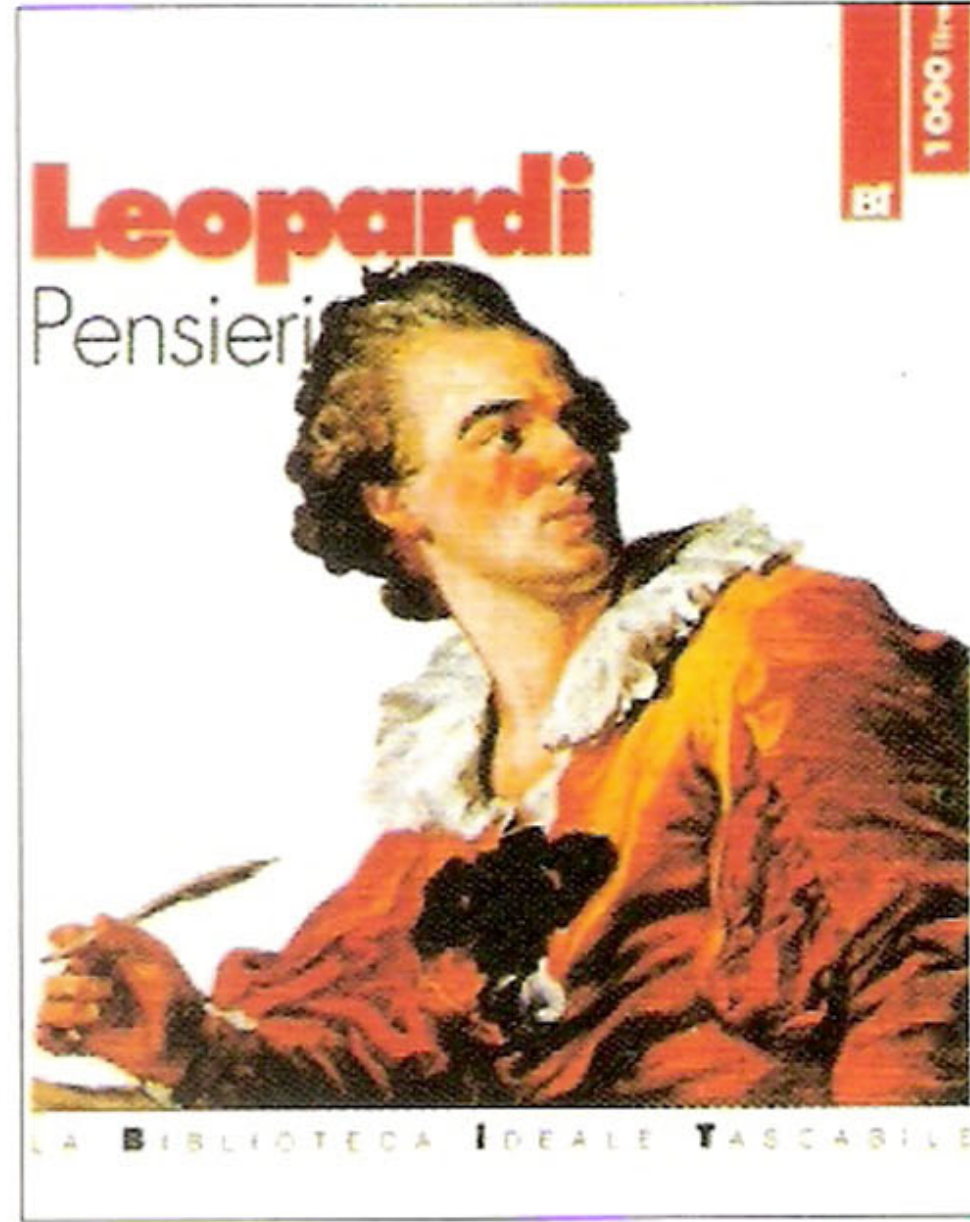
حاز شهادتي ماجستير من جامعتي
كاتانيا وبيروجيا في إيطاليا حول
التواصل الثقافي وتدويل النظم بين
دول البحر الأبيض المتوسط.

حاز الجائزة الأولى في الشعر خلال
مهرجان آذار الثامن عشر للأدباء الشباب
٢٠٠١.

صدر له ديوان بعنوان «ن» عن داري
مواقف في لبنان وبدائيات في سوريا
٢٠٠٨.

صدر ديوانه الثاني بعنوان «بيروجيا:
النص-الجسد» عن دار مواقف في لبنان
٢٠٠٩.

له عدّة مقالات وقصائد منشورة في
الدوريات الثقافية.



الشيخوخة سيئة إلى أقصى الحدود لأنها تسلب الإنسان كل أشكال المتعة تاركة له الشبهوات، ومعها جميع الآلام. رغم ذلك، يخشى الناس الموت ويفضلون الشيخوخة.



المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة